مراجعة الكتب

حول «الموسوعة القبطيَّة»

ماذا يقول الأقباط فيها عن أنفسهم؟

الأب موريس يبار مارتان اليسوعيّ*

المشروع

صدرت سنة ١٩٩١، عن شركة مكملن للنشر، الموسوعة القبطيَّة في ثمانية أجزاء[١]، محقِّقة حلمًا طالما رافق العلاَّمة الدكتور عزيز سريال عطيَّه. فقد أعلن، لثلاثين سنة خلت، في مؤلَّفه عن تاريخ المسيحيَّة الشرقيَّة[٢]، أنّه يطمح إلى نفض غبار النسيان واللامبالاة عن تاريخ وثقافة الأمَّة القبطيَّة، تلك الجماعة العريقة التي تعتزّ بأنّها ترقى إلى فجر المسيحيَّة وبأنّها ظلَّت أمينة لجذورها وتقاليدها وهويَّتها. والواقع أنّ الحقبة التي أزهرت في أثنائها، على أرض مصر، الثقافة المسيحيَّة دون سواها، هي فترة وجيزة إلى حدٍّ ما، حُصرت بين زمن الفراعنة والبطالسة والرومان من جهة، والعصور الإسلاميَّة من جهة أخرى. وقد استقطبت تلك الحقبات السابقة للمسيحيَّة واللاحقة بها اهتمام العلماء بحيث أهملوا معرفة جماعة الأقباط، وهي دون شكّ لا توازي الجماعات الأخرى شأنًا، كما أنّ دراستها منوطة إلى حدٍّ بعيد بعلوم شتّى تتعدّى حدودها الضيِّقة، كمعرفة آباء الكنيسة الشرقيَّة أو تاريخ العالم البيزنطيّ، فضلاً عن العربيّ والإسلاميّ.

---

* باحث متخصِّص في الشؤون المصريَّة.

(١) *The Coptic Encyclopedia*, Editor in chief Aziz S. Atiya, Macmillan Publishing Company, New York, 1991, 8 volumes.

(٢) *History of Eastern Christianity*, London 1962.

إلاّ أنّ الأمور أخذت تتبدّل منذ ما يربو على القرن. فبعد البحوث المتردّدة التي قام بها أوائلُ مشهورون، أمثال كِرشر (Kircher) أو فانسْليب (Vansleb) أو بُوكوك (Pococke) أو رينُودو (Renaudot)، انكبّت مجموعة واسعة من البحّاثين، وأكثرهم من أهل الاختصاص المركّز، على كشف النقاب عن لغة الأقباط وأدبهم، وعن نشأة الحياة النسكيّة ونموّها في شخصيّاتها وأماكن تأصّلها، وعن الفنّ القبطيّ والمؤلّفات العربيّة المسيحيّة في مصر إلخ. فأتى كلّ واحد من حقل اختصاصه ببعض العناصر التي كانت مبعثرة، فأسهم في بناء وحدة يمكن تسميتها، بشيء من الالتباس، «العالم القبطيّ». وفضلاً عن ذلك، فمنذ مئة سنة أيضًا، وفي عشرات السنين الأخيرة خاصّة، إذ كانت مصر في غمرة التحوّلات الجذريّة، استيقظت جماعة الأقباط، إذا صحّ التعبير، واستعادت القبض على زمام أمرها، وتبيّنت وضعها وأنشأت سلسلة من المؤسّسات للعمل على نموّها. وبدا لها أنّ الوقت قد حان لجرد جميع تلك المعلومات المختلفة المصدر، وجمعها ومقارنة بعضها ببعض.

وهذا ما انصرف إليه، طوال عشر سنوات ونيّف، بعد أن جمع حوله لفيفًا من العلماء المعوّل عليهم، الدكتور عطيّه، رئيس نشر تلك الموسوعة القبطيّة التي صدرت بعد وفاته بقليل. فله أيضًا نحن مدينون إذًا بصيغة المشروع الذي أشرف عليه بثبات وأنجزه. وأيًا كانت الانتقادات التي يمكن توجيهها طبعًا إلى بعض عناصر المؤلّف، فللدكتور عطيّه فضل كبير في إبداع أداة عمل لم يعد يستغني عنها كلّ مَن أراد الاهتمام بتاريخ مصر والمسيحيّة في الشرق وحتّى بتاريخ الإسلام.

إنجاز العمل

وأنتهز هذه الإشارة لأدلي بملاحظاتي الخاصّة على الموسوعة القبطيّة. ولا يسعني طبعًا إلاّ أن أقارنها بـ الموسوعة الإسلاميّة. فلا شكّ أنّها كانت بمثابة نموذج في القيام بهذا العمل. بينهما فرق أوّل يلفت النظر وهو أنّ الموسوعة الإسلاميّة تُنشَر بشكل كراريس تظهر في أوقات متباعدة، في حين أنّ الموسوعة القبطيّة تقدّم لنا جملة. وهذا ما يدلّ منذ الآن على أنّ هناك فرقًا في المقاربة

والتوجيه. نقول بكلمة واحدة إنّ الموسوعة الإسلاميّة تتوخّى أن تأتينا بآخر ما وصل إليه البحث في موضوع كلّ من موادها، وهذا ما يقتضي عملاً طويلاً لجمع معطيات تلك المواد وترتيبها. أمّا الموسوعة القبطيّة فهي تتوخّى أن تقدّم لنا عرضًا إجماليًّا لِما هو معروف في أيّامنا عن الثقافة القبطيّة. فالهدف هو إذًا إعلاميّ أوّلاً، وتعميميّ في أقصى حدّ، للعلم الذي حصل عليه العديد من أهل الاختصاص. لا ننسَ هنا الأسباب التي دفعت إليها، وهي جهل موضوعها ونسيانه إلى حدٍّ ما، ذلك النقص الأساسيّ المزدوج الذي كان لا بدّ من سدّه.

ولا شكّ أنّ كثيرًا من المواد تتجاوز إلى حدٍّ بعيد مستوى الإعلام الموجّه إلى الجمهور الواعي، إذ إنّها تعالج مواضيع من الاختصاص البالغ. وإليك بعض الأمثلة: الخزافة القبطيّة القديمة، أو هندسة بعض الآثار غير المعروفة، أو أسماء بعض النسّاخ العرب المسيحيّين، أو البحث في بعض الأمور الغامضة في سِيَر القدّيسين، وكلّ ذلك يحتاج إلى اطّلاع دقيق على مصادر يصعب الوصول إليها... إنّنا نرتاح إلى وجودها الذي كنّا نتوقّعه، لكنّنا نعترف بأن صفتها العلميّة القصوى لا تشمل جميع مواد الموسوعة القبطيّة.

إلى مَن توجَّه «الموسوعة القبطيّة»؟

وبما أنّ المطلوب منّا قبل كلّ شيء هو أن نفيد عن حقل غير معروف أو غير مقدّر كما يجب، فلا بدّ لنا الآن أن نتساءل إلى أيّ جمهور تُوجَّه الموسوعة، فإنّ مثل هذا السؤال هو الذي يُحدِّد، على وجه الإجمال، نوع الفوائد التي يجب وضعها في متناول ذلك الجمهور. فمَن هو الذي يلجأ إلى الموسوعة القبطيّة للاستعلام عن مصر المسيحيّة، القديمة والحاليّة؟ هم أوّلاً أولئك الذين يهتمّون بحقل المسيحيّة الشرقيّة الواسع، ولا يعرفون منها عادةً إلاّ الحقبة «الكلاسيكيّة» التي تشمل القرون الأربعة أو الخمسة الأولى، ويحتاجون إلى معلومات عن بقائها الطويل مدّة تعريب المنطقة وأسلمتها. فهناك الكثير من الأحداث والتطوّرات والشخصيّات والمؤسّسات، إلى جانب العلماء المستشرقين الذين بحثوا فيها. ثمّ يأتي الذين يعيرون اهتمامًا خاصًّا بالشرق الأدنى العصريّ

والذين نخشى أن تحجب سيادة الإسلام عن نظرهم واقع الجماعات المسيحيّة الحاليّة، التي لا يدور الكلام عنها إلاّ عرضًا عند قيام الأزمات. والحال أنّ جماعة الأقباط هي، إلى حدٍّ بعيد، أكبر الجماعات المسيحيّة في الشرق الأدنى. ولماذا لا تقصد الموسوعة القبطيّة الأقباط أنفسهم؟ فهم أيضًا يحتاجون إلى تبيُّن أنفسهم، ونخصّ بالذكر أولئك المعرَّضين لنسيان هويّتهم. فإنّ مادّة «الهجرة» (migration) تكشف لنا عن عدد الجماعات القبطيّة في الخارج وعن حجمها، ولا سيّما في البلدان الناطقة بالإنكليزيّة، أي في الولايات المتّحدة وأوستراليا وإنلكترّا. ولمّا كان ناشر الموسوعة القبطيّة وبعض أقرب معاونيه منهم، فلم يكن في إمكانهم أن يهملوا ذكرهم.

المسيحيّون المصريّون يعبّرون عن أنفسهم

وهل نستطيع الآن أن نرسم الملامح العريضة التي يمتاز بها وجه الجماعة القبطيّة المعروض على ذلك الجمهور؟ لا أريد هنا أن أصنّف وأستعرض مختلف أبواب المواد، بل أقتصر على المواد التي وضعها الأقباط أنفسهم، محاولاً أن أجيب عن هذا السؤال البسيط: ماذا يريدون أن يعرف الناس عنهم في عالم اليوم؟ لا شكّ أنّ معظم المساهمين في الموسوعة القبطيّة ليسوا من مسيحيّي مصر (فهم، على ما أذكر، ٣٥ من أصل ٢١٤)، لكن بعضهم وضعوا عددًا ضخمًا من المواد (عزيز عطيّه، والأنبا باسيليوس، وإميل إسحٰق، وصبحي لبيب على سبيل المثال، وهم أكبر المساهمين). فلا نستغرب أن يعبّروا بحماسة عمّا في أعماق قلوبهم. ولكنّهم يريدون أن يعرّفوا أنفسهم إلى الآخرين، فلا بدّ لهم أن يعيروا اهتمامًا إلى متطلّباتهم في ميدان النقد، لا سيّما وأنّ العديد من المواد تتوافق في بعض جوانبها، وهي ليست من وضعهم وحدهم. وهذا ما يفسّر وجود شروح مختلفة، لا بل متناقضة.

لكن هذا الاحتمال الأخير لا ينطبق إلاّ قليلاً على الحقبة التاريخيّة المعاصرة، إذ إنّنا نجد بعض المعلومات المهمّة عن شخصيّات قبطيّة غير معروفة خارج جماعتها، مع أنّها تستحقّ الذكر: فهناك اختصاصيّون في علم الآثار وفي القبطيّات (إقلاديوس لبيب ولبيب حبشي وسامي جبرا وجرجس متّى ويسّى عبد

المسيح)، ومؤرِّخون (شارويم ميخائيل)، وصحافيّون (المتباديّ وقرياقس ميخائيل)، ورجال سياسة، وشخصيّات دينيّة كالبطاركة الحديثون، وأساقفة بارزون (الأنبا أبرام، قدّيس الفيّوم، والأنبا صموئيل الذي فتح كنيسته للعلاقات المسكونيّة)، والقمّص التشيط وصاحب الشخصيّة المثيرة للجدل جرجس (القمّص سرجيوس)، الذي أنشأ «مدارس الأحد» وأدار مدّة طويلة الكلّيّة الإكليريكيّة. وبعنوان «جمعيّات خيريّة» (Benevolent societies) و«كلّيّة إكليريكيّة» (Clerical college) و«صحافة» (press) و«دير أبو مقّار»، نجد مواد ممتازة تطلعنا على تلك المؤسّسات وعلى التجديد النسكيّ الحاليّ، لكنّنا نأسف على أنّ المادّة «الأدب القبطيّ العربيّ» (literature copto-arabic)، المتّسمة بالطابع الدينيّ والسياسيّ خاصّة، لا تذكر على الإطلاق أحدًا من الروائيّين العصريّين، مع أنّ دورهم هامّ في تشرُّب الثقافات. منهم، على سبيل المثال، مجيد طوبيّا وألفريد فرج ونبيل نعّوم...

أمجاد الماضي، في التاريخ والأسطورة

ولكن، حين يتطرّق الإنسان إلى التاريخ القديم، وإلى تاريخ النشأة بوجه خاصّ، يصعب عليه التمييز بين ما هو مجرّد أسطورة، والتقليد المختلط والتاريخيّة الأصيلة - مع أنّ كلّ ذلك يفيد المعرفة، وإن وجب تمييزه بالدقّة اللازمة. لا يجوز لنا أن نقول إنّ الموسوعة القبطيّة وُفّقت دائمًا في هذا الانزلان العسير، لأنّها، ولا شكّ، مهتمّة بمراعاة شعور الجماعة الدينيّ، الأمر الذي يعرّضها للجمع بين وجهات نظر متباينة في سياق التأليف، إذ إنّ الكتّاب الأقباط يشدّدون على التقليد، في حين أنّ «الغرباء» يروون، في صفحات أخرى، ما يُثبته العلم التاريخيّ.

إليكم بعض الأمثلة المعروفة: إنّ «الهرب إلى مصر» (flight into Egypt) يلخّص التقليد المحلّيّ عن مسيرة العائلة المقدّسة في مصر وكأنّه أمر مُثبَت، ولا يُؤخذ بعين الاعتبار أنّ معظم النصوص أو العادات التي تحدّد مراحل المسيرة يرقى عهدها إلى زمن متأخّر جدًّا: راجع، في هذا الأمر، مادّة «حجّاج ومسافرون» (pilgrims and travellers). كما أنّ التقليد القبطيّ في إنشاء كنيسة

الإسكندريّة، عن يد مرقس الإنجيليّ، «أحد الرسل الاثني عشر»، هو عبارة عن ملخّص للكتاب الذي وضعه البابا الخامس شنوده الثالث عن حياة هذا الرسول. فقد ورد في الصفحة ١٣٤ «أنّ وجهة نظر الكنيسة الرسميّة هي التي اعتُمدت في الكتاب كلّه»، مع أنّ أوّل مَن ذكر هذا الأمر في التاريخ، وبكلّ تحفُّظ، هو أوسابيوس القيصريّ الذي عاش في القرن الرابع. فلا نجد عند إقليمنضس الإسكندريّ ولا عند أوريجينس وحتّى لا عند أثناسيوس الكبير أيّ ذكر للأمر. هذا وإنّ المادّة «الوثنيّة والمسيحيّة» (paganism and christianity) في مصر، وهي تروي تاريخ المسيحيّة في مصر، تلفت نظرنا إلى أنّنا لا نجد أمورًا ثابتة، في تاريخ كنيسة الإسكندريّة، إلاّ انطلاقًا من زمن البطريرك ديمتريوس الأوّل، الذي توفّي سنة ٢٣١. فنأسف إذًا على كون أسطورة القدّيس مرقس تحلّ محلّ عرض موضوعيّ للظروف التاريخيّة التي نشأت فيها بطريركيّة الإسكندريّة.

يأتي بعد ذلك زمن الشهداء وآباء البرّيّة، وهم أعزّاء على ذاكرة المسيحيّين في مصر. لا يمكن تقدير عدد الشهداء بالدقّة المطلوبة، ومع ذلك، فقد ورد في الصفحتين ١٥٤٨ و١٥٥٠ أنّه بلغ المليون... وفي مادّة «شهداء» (martyrs)، وبحسب طريقة يستخدمها المؤلّف في غيرها من المواد «بطاركة» (patriarchs) و«قدّيسون» (saints) و«سنكسار» (synaxarion)، قائمة للشهداء، يفتبسها هنا من كتاب معروف لـ de Lacy O'Leary بعنوان «قدّيسو مصر في التقويم القبطيّ»، لافتًا نظرنا إلى أنّه أوجز رواياتها الأسطوريّة ولم يحتفظ إلاّ بما هو تاريخيّ: هذا مشروع ميئوس منه، إن لم ننس أنّ العديد من الشهداء هم أنفسهم أسطوريّون، علمًا بأنّ رواية تعذيبهم «حافلة بوصف أعجب وأشرس الوقائع التي يمكن تخيّلها». وأمّا النصوص التي وردت فيها فهي تعود إلى فنّ أدبيّ ملحميّ شعبيّ وإلى الكثير من التنقيحات التي تذكّر بها المادّة «سيرة الشهداء» (martyrology).

لكن تعطُّش الشعب إلى الخوارق لا يُروى، فهو ثابت. فالأنبا باسيليوس يروي بالتفصيل (ص ١٠٩٥) تلك المعجزة الشهيرة التي يقام ذكرها كلّ سنة بصوم يدوم ثلاثة أيّام، معجزة تزعزُع المقطّم، استجابةً لصلاة البطريرك

إبراهيم بن زرعه، في حين أنّ صبحي ي. لبيب، الذي وضع المادّة «إبراهيم بن زرعه»، يصف المعجزة بأنّها مجرّد أسطورة. جرى ذلك في القرن العاشر. وأمّا في السنة ١٨٣٢، فإنّ إبراهيم باشا القليل الإيمان شاهد مُعجبًا، على ما يزعم، ظهور النور العجائبيّ الذي يخرج من قبر المسيح يوم السبت العظيم في أورشليم، على ما رواه الأنبا باسيليوس (ص ١٢٤٨)، في حين أنّ منير شكري يصف الحدث بأسطورة ظاهرة «تدلّ على عمق الشعور الدينيّ عند الأقباط» (ص ١٩٥٠).

مَن هو قبطيّ؟

أشرتُ في المقدّمة إلى ما في لفظ «العالَم القبطيّ» من التباس، يختلف امتداده باختلاف شدّة الشعور القوميّ. وبناء على ذلك، فإنّ آباء كنيسة الإسكندريّة، أثناسيوس وإقليمنضس وأوريجنيس، هم، ولا شكّ، من أمجاد مصر المسيحيّة. ولكن، مع أنّ مؤلّفاتهم وُضعت باليونانيّة، لا يجوز إدراجهم في عداد آباء الكنيسة «اليونانيّين»، فإنّ بعضهم، ولا شكّ، كان يتكلّم القبطيّة، إذ كيف استطاع أثناسيوس أن يكون على صلة بأنطونيوس «الأُمّيّ»، إلاّ عن طريق اللغة القبطيّة («آباء الكنيسة» patrology)؟ أما أقدم بنطينس وإقليمنضس أنفسهما على ترجمة الكتاب المقدّسة إلى القبطيّة (ص ١٠٤)؟ أو ليس هناك مؤلّفات قبطيّة مفقودة لأوريجنيس (ص ١٨٥٣)؟ لا شكّ أنّ شنوده الثالث ينسب سهوًا إلى القدّيس أنطونيوس سيرة الحبيس (anchorite) بولس، وهي تُعَدّ أسطوريّة، مع أنّه وحده قد لقيه؟ وهل نستطيع، ونحن في باب البحث عن أسماء المؤلّفين، أن نجرّد أبا صالح الأرمنيّ من أبوّته لـ «تاريخ الكنائس والأديرة»، لنشرّف بها القبطيّ أبا المكارم وحده، من دون البحث في بعض المخطوطات التي يختلف أحيانًا بعضها عن بعض، ومن دون أن نأخذ بعين الاعتبار طبيعة المؤلّف المعترَف بها، إذ إنّها جمع غير منظّم لمصادر متنوّعة؟

أسلمة مصر

يبقى أن أعوص أمر يتطرّق إليه الأقباط في تاريخ جماعتهم هو، ولا

شكّ، علاقاتهم مع الإسلام، والانتقال من مصر مسيحيّة . . . مسلمة في معظم سكّانها، كما نراها اليوم. كثيرٌ ما يدور الحديث عن هذه المسألة في الموسوعة القبطيّة، ولكن بطريقة غير مباشرة، في الكلام على الأحداث التي أثّرت في تعاقب الأنظمة السياسيّة. أمّا أسباب اعتناق الدين الإسلاميّ، وكثيرًا ما تمّ بكثرة، فلا يتوقّف الكتّاب إلاّ على سببين منها خاصّة في مختلف المواد، ولكن الدكتور منير مجلي يسلّط عليها الأضواء في «الحسابات والمحاسبة» (accounts and accounting)، فينسبها إلى الإفراط في فرض الضرائب على الذميّ وإلى الازدياد في تعصّب المسلم لدينه، وفي كلّ ذلك ما يدعو إلى الاضطهاد والفتن.

من الواضح أنّ تلك الأسباب كان لها عمل كبير، ولكن أليس في التذرّع بها وحدها تبسيط للأمور؟ فلماذا لم تؤدِّ الأسباب نفسها إلى النتائج نفسها في كلّ مكان؟ وكيف نرى أنّ بعض المناطق في مصر الوسطى والصعيد بقيت مسيحيّة نسبيًّا إلى حدٍّ بعيد، خلافًا لما جرى في الدلتا مثلاً؟ كان فرض الضرائب معروفًا قبل دخول الإسلام، وما هو سوى عنصر من عناصر بنية اقتصاديّة سياسيّة قلبها مجيء العرب رأسًا على عقب. فلقد استولوا على شبكات التجارة السابقة ووجّهوها نحو عواصمهم. فأهملوا العلاقات التقليديّة القائمة بين الريف من جهة، والدير والمدينة من جهة أخرى، فعملوا بذلك على الحطّ من شأن العاصمة الإسكندريّة والعديد من المراكز الحضريّة التي حُكم عليها بالخراب. وفي إطار تلك البنى الجديدة، لا ننتظر من ثقافة قبطيّة متأثّرة بانعزالها أن تقاوم، سواء أكان على مستوى اللغة أم على مستوى الأخلاق، زحف إسلام كانت ثقافته في ذروتها. فكانوا يمارسون الاقترانات المختلطة، وأخذ الوجهاء الأقباط يملكون العبيد والإماء، وأصبح اعتناق الإسلام سبيلاً للانضمام إلى الطبقة المسيطرة والحصول على وضع اجتماعيّ أو سياسيّ أو مهنيّ، والمحافظة على مقام في البلاد. ذلك هو، على الأقلّ، التحليل المرتكز على مستندات، الذي قام به S. Gellens («مصر، أسلمة» Egypt, islamization) أو Gh. Franz-Murphy (ص ٢٢٨٨ ـ ٩). وذلك ما يفسّر، في المادّة «الأقباط في مصر القرن الوسيط المتأخّر» (Copts in late Medieval Egypt)، إحصاء عدد رهيب من الموظّفين المسلمين المتحدّرين من أصل قبطيّ.

في شأن البعثات الأجنبيَّة

هناك بعض الأمور الحسّاسة في صلة جماعة الأقباط بسائر الجماعات، في الأزمنة العصريَّة خاصَّة، حتّى تمّ الانفصال بينها وبين البعثات الأجنبيَّة في نهاية القرن السابع عشر، فانجرَّت إلى حركة التجديد التي عرفتها مصر. يُخشى في تلك الأحوال أن تفسِّر المواقف القديمة من خلال الوضع المعاصر، فنقع في خليط مشكوك فيه. على هذا النحو، يصوِّر البطريرك يوحنَّا السادس عشر، المتوفّى سنة ١٧١٨، بأنّه معارض في الأساس للبعثات الكاثوليكيَّة ولمحاولاتها في الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر: يختلف هذا الوصف عمّا تفيدنا به أخبار المرسلين في ذلك الزمن، علمًا بأنّهم لم يكونوا كثرًا (يسوعيَّان أو ثلاثة، ومثلهم الفرنسيسكان) ولا من المهدِّدين، إذ إنّ البطريرك المذكور طلب إلى أحدهم، وكان منطلقًا إلى الحبشة، أن يحمل معه الميرون إلى «الأبونا». ولماذا نجد، في مادّة «يوحنَّا السادس عشر»، إشارة إلى أوَّل البطاركة الأقباط الكاثوليك، كيرلس مقاريوس، وإلى رحلته إلى أديس أبابا، بعد ذلك بقرنَين؟ ويقال لنا أيضًا إنّ البطريرك مرقس السابع، المتوفّى سنة ١٧٦٩، قاوم إنشاء مدارس قرويَّة في الصعيد، عن يد اليسوعيّين، مع أنّهم لم يقوموا بهذا العمل في الصعيد إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر. وإليكم مثلاً مميِّزًا آخر: هل يمكننا أن نمثِّل التمرُّد على الإنكليز، الذي تزعَّمه المهدي في السودان سنة ١٨٨١، بموجة اضطهادات عاناها الأقباط وأرغمتهم على مغادرة البلاد (ص ٢١٥٨)؟ قيل لنا إنّ مسيرة بحر ستضع مادّة في «الأمّة القبطيَّة»، وهي حركة قبطيَّة متطرِّفة نشأت ردَّ فعل على حركة الإخوان المسلمين في الثلاثينات (ص ١٦٩٤)، فلماذا لم تُنشر هذه المادّة؟ أيكون ذلك عن حذر؟

مسائل جدليَّة

بقي هناك حقل واسع، هو الحقل القبطيّ الخاصّ، ويتناول الليتورجيَّة وما يتعلَّق بها من موسيقى وطقوس وأعياد، شرحه بجدارة بعض أساتذة الكلِّيَّة الإكليركيَّة. وحُفظ للأنبا باسيليوس، بطريرك أورشليم (وقد توفّي حديثًا)، حقل أوسع هو حقل اللاهوت والتفسير الذي يرتكز عليه، وربَّما فيه يظهر

بأوضح وجه. الالتباس حول هويّة الجمهور الذي تستهدفه الموسوعة القبطيّة فهل تراد لمؤلف أن يصنع نوعًا من التعميم المسيحيّ يتناول رعاياه الذي يذكّرهم بأهمّ عناصر إيمانهم وممارستهم الدينيّة؟ إذا صحّ هذا الرأي، لا يُستغرب ما في الشرح من بساطة: فهناك بعض الشواهد المأخوذة من الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة، وهي تزيّد وتبرّر ما يُؤمَن به ويمارَس في أيّامنا، مع تشديد خاصّ على الاتّجاهات الروحيّة المرغوبة. ولكنّنا كثيرًا ما نجد شروحًا عقائديّة ليس فيها شيء من الطابع «القبطيّ» الخاصّ، أو قد يغرق فيها هذا الطابع. ونأسف بوجه خاصّ لوقوعنا على نوع من الأصوليّة يحمل على قراءة الكتاب المقدّس ونصوص الآباء قراءة حرفيّة، من دون أن تُؤخذ بعين الاعتبار التطوّرات التي أدّت إلى تلك النصوص والتي تحصرها في تاريخ معيّن، وهو أمر لا غنى عنه ليكون تجديد قراءتها مقبولاً في أيّامنا.

وإن دار الكلام على مسائل أصبحت جدليّة في الأوضاع الراهنة، تبدو لنا الطريقة غير صالحة. ففي حقل المسيحانيّة، يُقتصر على رفض المجمع الخلقيدونيّ، في حين أنّ الرأي العامّ، منذ أن تمّ اللقاء بين بولس السادس وشنوده الثالث في ١٩٧٣، يسلّم بأنّ الفرق في الصياغة لا يتضمّن تعارضًا في الإيمان. وفي حقل العواقب («مثوى الأموات، والسماء، والدينونة» Hadès, Heaven, Judgment)، فإنّ النصوص المستند إليها لتمييز «الجنّة»، حيث ينتظر الأبرار الدينونة العظمى للدخول إلى السماء، لا بدّ من أن تُقرأ في نظرة رؤيويّة تفترض عودة سريعة للمسيح المجيد... ومع ذلك، فإنّ تلك النصوص، كما هي، تحمل على رفض وجود مطهر يجري النقاش حوله منذ سنين طويلة بين الأقباط والرومانيّين. لكنّ مادّة «المعموديّة» (baptism) لا تخلو من الالتباس، إذ إنّه لا يمكننا أن نعرف هل ممارسة إعادة عماد المراطقة، التي كانت موضوع نقاش في القرنَين الثالث والرابع، ثمّ شُجبت بشدّة، ثُبتَ وتُرفض في آخر الأمر، فإنّ إعادة العماد مفروضة فرضًا في أيّامنا على الطرف غير الأرثوذكسيّ في زواج مختلط. وهل يصحّ أن يُقال إنّ الكراسي الرسوليّة (Apostolic Sees) عُدّت دائمًا متساوية، مع أنّ بعضها حظي على أهمّيّة أكبر، نظرًا إلى «مسؤوليّاتها المدنيّة»، بغضّ النظر عن الأوليّة الفخريّة المتواضعة التي يسلّم بها الأرثوذكس عادةً للكرسيّ الذي أسّسه بطرس وبولس؟

هويّة الجماعة

من هذا العرض الذي يقدّمه بعض الأعضاء المُطّلعين والممثّلين عن جماعتهم، تبرز بعض الملامح المميّزة. هناك، قبل كلّ شيء، تغلّب واضح للماضي، لزمن النشأة، زمن الشهداء والوجوه البارزة التي اشتهرت بها الحركة النسكيّة، زمن آباء الكنيسة الإسكندريّين. يُنظر إلى تلك الحقبة من وجهة دينيّة، ولا يدور الكلام على الاقتصاد أو الحياة الاجتماعيّة، ولا شأن للأحداث السياسيّة نفسها إلاّ في انعكاساتها على الكنيسة. فالنظرة هي إذًا نظرة إجماليّة: مصر القبطيّة هي واحدة، تغطّيها كلّها بطريركيّة واحدة. فلا نعرف شيئًا لا عن مختلف الإيبارشيّات ولا عن الاختلافات أو التوتّر في العلاقات المحلّيّة. هذا وإنّ الذين وضعوا المواد عن الأماكن هم من الأجانب، وهي لا تتعلّق إلاّ بالماضي، مع أنّنا نرغب أن نعرف ما هو الحضور المسيحيّ الحاليّ في تلك الأماكن الشهيرة.

إنّ ذلك الماضي المجيد هو حاضر دائمًا، لأنّه «روحيّ» في أساسه، وبالتالي نموذجيّ. وهو يعود إلى الحياة عبر الحركة النسكيّة التي نعجب بتجديدها. و«البقيّة الباقية» من النسّاك، الذين كانوا يعيشون في الأديرة النائية قبل أيّامنا بأقلّ من خمسين سنة، خلّفت العديد من الأجيال الفتيّة التي تتغذّى في أساسها من التقليد النسكيّ القبطيّ القديم وتُنعش، على طول وادي النيل، مواقع مهجورة منذ عدّة قرون. أمّا الكتيّبات التي يجدها الزائرون في جميع الكنائس والمزارات، فإنّها تذكّر بالصراع الأسطوريّ الذي صارعه الشهداء الأوّلون، حين عانوا اضطهاد السلطات، أو بالعجائب التي أجراها النسّاك القدّيسون، ولا شكّ أنّ تلك الكتيّبات وُضعت لتسليط الأضواء على أوضاع المؤمنين الراهنة التي تسودها أجواء معادية. ولقد أشرنا أيضًا إلى الاستشهاد، في علم اللاهوت، بنصوص آباء الكنيسة لتبرير الارتكاز على إيمان لا يتغيّر وممارسة لا تُمسّ. إنّ التاريخ يحطّم، إذا صحّ التعبير، للوصول على وجه أفضل إلى تقليد الأصل المجيد.

ومن الواضح أنّ هذا الاستناد الدائم إلى الماضي الدينيّ، الذي أصبح أسطورة، يفيد اليوم مجموعة رجال الإكليروس ورؤسائهم (علمًا بأنّ هؤلاء

الرؤساء هـ[illegible] الرهبان[illegible] الذي يفكّر ويدبّر، وعمود الخيمة الفقريّ. [illegible]سك أنّ نقطة التحوّل، بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، شهدت في مصر، على عهد الليبراليّة السياسيّة، قيام حركة علمانيّة هامّة في الجماعة، أرادت أن تتولّى زمام مصيرها، أمام رجال إكليرس متخلّف. لكنّ تاريخ مجمع الأقباط، الذي يروي جهودهم المبذولة، هو تاريخ كُتب له الفشل. ونستغرب قلّة عدد الشخصيّات المعاصرة، الجديرة بأن تسمّى علمانيّة، لأنّها سياسيّة (بطرس غالي ومكرم عبيد ووبصا واصف)، نظرًا إلى كثرة عدد الذين اختارتهم الموسوعة القبطيّة من بين الذين لم يتجاوزوا الحقل الدينيّ. أوَ ليس من اللافت أن تأتي المادّة «سلامه موسى»، وهو متعلمن معروف، بقلم أحد المؤرّخين المسلمين؟

في هذه الأجواء الدينيّة الإكليركيّة، يبدو كلّ اتّجاه عصريّ تهديدًا، ولا سيّما على مستوى الخلية الرئيسيّة التي هي العائلة («الحياة العائليّة في مصر العصريّة» Modern Egypt Family life in). وهذا ما يفسّر لنا، ولا شكّ، إهمال مشاركة النساء القبطيّات، مع أنّها مشاركة تُذكر، في الحركة النسائيّة المصريّة في الثلاثينات، في حين أنّ المادّة «الجماعات الرهبانيّة النسائيّة» (Wo-men religious communities) تفيدنا عن نشأة الحياة الرهبانيّة النسائيّة ونهضتها.

إنّ تغلُّب التقليد الدينيّ، في عرض هويّة الجماعة والدفاع عنها، لا ينحصر في الأقباط على الإطلاق: هذا وضع عامّ يشمل الآن كلّ العالم العربيّ، فلا ترى كيف ولماذا ينجو منه المسيحيّ الذي يتلقّى في المدرسة وفي الجامعة ما يتلقّاه رفيقه المسلم من تكوين. وإذا صحّ أنّ المضمون، في تلك الثقافة، يختلف بين القبطيّ والمسلم، فالشكل يبقى مماثلاً. لكن هناك «زائدًا» عند القبطيّ، يعود إلى كونه ينتمي إلى أقليّة صغيرة جدًّا، ويعبّر عنه بالميل إلى محافظة مبنيّة على مزيد من الخوف. «كلّ شيء متماسك» على وجه من الوجوه، ولا يجرؤ أحد على أن ينتقد أو ينتزع عنصرًا من عناصر تلك الوحدة، مخافة أن يتزعزع كلّ شيء. أفليس الاعتراف بأنّ بعض الأمور الخارقة قد تكون من عالم الأسطورة هو تلميح إلى الشكّ في الإيمان بالله القدير؟ أوليس التسليم بأنّ خطّ

التاريخ هو أقلّ استقامة ممّا يرغبون يؤدّي إلى طرح الأسئلة العويصة حول الأوضاع الحاليّة؟

لا نكن من المتصاعبين أمام ذلك الحذر العائد إلى الظروف الراهنة، والذي يتجاوز، كما رأينا، بعض الكتّاب المتحرّرين. هذا وإنّ الموسوعة القبطيّة، إذ إنّها تقيم مقارنة بين مختلف التحاليل والعروض لموضوع واحد تطرّق إليه الكاتب القبطيّ والمؤلّف الأجنبيّ، تشجّع على السير في طريق التطوّر المرغوب.

(نقلها إلى العربيّة أ. صبحي حمويّ)

صدر حديثًا عن «دار المشرق»

أدوار غالب
مهندس زراعي

الموسوعة في علوم الطبيعة

تبحث في الزراعة والنبات والحيوان والطير والسمك والحشرات والفطور وأمراضها والأمراض الحيوانية والنباتية والمصطلحات العلمية على اختلافها أخصها الفيزياء والكيمياء والرياضة والبيولوجية والطبيعة والجغرافيا

وتتألف من أربعة مجلدات يحتوي آخرها على سارد للمصطلحات باللغات: الألمانية، الإنكليزية، الإيطالية، الفرنسية، اللاتينية، واليونانية

طبعة ثانية مجددة

المجلد الأول
من الألف إلى الغال

دار المشرق ش.م.م
بيروت

ثلاث مصنّفات للحكيم الترمذيّ: كتاب سيرة الأولياء، جواب المسائل التي سأله أهل سرخس عنها، جواب كتاب من الريّ،

نشرها بيرند رانكه
«النشرات الإسلاميّة»، ٣٥/أ، بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
يُطلب من دار فرانتس شتاينر، شتوتكارت

نُشر سنة ١٩٦٥ (في دار المشرق) مصنّف ختم الأولياء للحكيم الترمذيّ (ت نحو ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م)، نشره عثمان يحيى. وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص هامّة كتبها ذاك الفقيه والمتصوّف والمتحدّث الخراساني نفسه، وقد اهتمّ بجمع مخطوطاتها ونشرها المستشرق الألمانيّ بيرند راتكه في إطار مكتبة «النشرات الإسلاميّة». والمعروف عن الترمذيّ الحكيم أو الحكيم الترمذيّ أنّه اتُّهم بالكفر والزندقة إثر نشره نصّ كتاب «ختم الأولياء»، عمّا دفعه، خوفًا من الاضطهاد والمطاردة، إلى الجلاء عن مدينة ترمذ واللجوء إلى بلخ من أعمال خراسان. والحكيم الترمذيّ، في تاريخ المتصوّفة، هو مَن قال بالوَلاية، تلك الصداقة التي يخصّ بها الله أولئك الذي يعبدونه العبادة الخالصة. وإذا كانت الوَلاية مفهومًا شيعيًّا، فإنّ الحكيم الترمذيّ جعل منها ولاية عامّة، يشترك فيها جميع المسلمين لأنّهم أدّوا الشهادة، وكذلك ولاية خاصّة خصّ بها الله المؤمنين الذين لديهم الاستطاعة لكي يصلوا إلى مكنون الأمور الموحى بها. وبهذا تصبح الولاية مصدر الإلهام النبويّ وتطغى على الطابع التشريعيّ لرسالته. والواقع أنّ هذه النظرية، التي أثارت حفيظة الكثيرين ممّن يؤكّدون على تعالي النبوّة في شخص محمّد، قد جعلت العقيدة السنّيّة ترى في شخص النبيّ محمّد أفضل الأولياء وأكرمهم (Cf. H. Corbin, *Histoire de la Philosophie islamique*, p. 257).

ويقول الحكيم الترمذيّ في أهمّ النصوص الثلاثة المنشورة، وهو نصّ كتاب سيرة الأولياء، مكمّلاً نظريّته في الولاية: «والولي عندنا على صنفين: صنف أولياء حقّ الله، وصنف منهم أولياء الله، وكلاهما ينسبان إلى أنّهم أولياء الله. فأمّا وليّ حقّ الله: فرجلٌ أفاق من سكره، فتاب إلى الله وعزم على الوفاء لله بتلك التوبة فنظر إلى ما يُراد له من القيام بهذا الوفاء، فإذا هو حراسة هذه الجوارح السبع: لسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وبطنه وفرجه، فصيّرها من باله، وجمع فكرته وهمّته في هذه الحراسة الجوارح، ولَها عن كلّ شيء سواها حتّى استقام، فهو رجلٌ مؤدٍّ للفرائض حافظٌ للحدود، لا يشتغل بشيء عن ذلك: يحرس هذه الجوارح حتّى لا ينقطع عن الوفاء لله بما عزم عليه، فسكنت نفسه وهدأت جوارحه (ص ٢). ويختم الترمذيّ كلامه في وليّ حقّ الله قائلاً: «فهذا شأن وليّ حقّ الله، ومع هذا قد يُقال له وليّ الله لأن الله قد ولي أخذه ونقلانه إلى محلّ القربة» (ص ٣٣).

أمّا الصنف الثاني الذي يتحدّث عنه الترمذيّ، وهو صنف ولي الله، «فرجلٌ يثبت في مرتبته وافيًا لله بالشرط كما وفى له بالصدق في سيره وبالصدق في محلّ انقطاعه واضطراره، فأدّى الفرائض وحفظ الحدود ولزم المرتبة حتى قُوِّم وهُذِّب وأُدِّب ونُقِّي وطُهِّر وطُيِّب ووُسِّع ورُبِّي وغُذِّيَ وشُجِّع وعُوِّد، فنمت ولاية الله بهذه الخصال العشر، فنُقِل من مرتبته إلى مالك

سبحانه يُلقيه في قلبه وصار يعمل به هو وما هو من نفسه ومن كلّ شيء. فصيّره في قبضته وقيّده بعقله وحمده أميناً من أمنائه، وصار كالمفوّض إليه لا يحتاج إلى إذن لأنه حيثما ذهب في شيء من أموره فهو في قبضته، وأيّ حصن أحصن من قبضته وأيّ حارس أشدّ حراسةً من عقله الأكبر؟» (ص ٣٣).

«وفي الفرق بين النبوّة والولاية أنّ النبوّة كلام ينفصل من الله وحيًا معه روح من الله فينقضي الوحي فيختمه بالروح فيه قبولُه، فهذا الذي يلزم تصديقه، ومن ردّه فقد كفر لأنه ردّ كلام الله، والولاية لمن ولي الله حديثه على طريق الخزائن، فأوصله إليه، فله الحديث، ينفصل ذلك الحديث من الله على لسان الحقّ معه السكينة التي في قلب المجذوب فتسله ويسكن إليه» (ص ٤٦).

ولكبراء الأولياء علمٌ هو علم البدء والمقادير ويوم الميثاق والحروف، وشمائل هي القصد والهدى والحياء واستعمال الحقّ وسخاوة النفس وحسن الخلق (ص ٥٨). ويربط كتاب سيرة الأولياء بين النبوّة والولاية قائلاً: «وما عقد الوَلاية؟ قال: كشف الغطاء، وَلِيّ الله الأنبياء، بأن أخذهم من نفوسهم إلى محلّ النبوّة وكشف الغطاء» (ص ٧٩). وهذا يعني أنّ الولاية تتضمّن «كشف الغطاء» عن الوحي وهو من مهمّات الأنبياء، ممّا يشير إلى أنّ كتاب سيرة الأولياء يثبت ما تقدّم في كتاب ختم الأولياء ونصوص الترمذيّ الأخرى.

وما يُشار إليه أخيرًا أنّ التحقيق يعتمد على عدد وفير من المخطوطات، وهو أن واضحًا متجانسًا متكاملاً، وأنّ في عمل بيرند راتكه دِقّة علميّة كبيرة ومعرفة لا بأس بها بواقع خراسان الثقافيّ والدينيّ في القرن الرابع الهجريّ، وكذلك معرفة جيّدة بتاريخ الفكر الصوفيّ. وفي ختام القسم العربيّ من الكتاب مجموعة من الفهارس، أهمُّها فهرس اصطلاحات الترمذيّ. الكتاب في ٢٩٦ صفحة (في القسم العربيّ) وفي ٧٨ صفحة (في القسم الألمانيّ).

سليم دكّاش

صُوَر من شمالي جزيرة العرب
في منتصف القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الرحّالة الفنلنديّ جورج أوغست قالين
ترجمه سمير شبلي ـ راجعه يوسف إبراهيم يزبك ـ ٢٨٣ صفحة

لا ذكر لمكان الطبع وتاريخه، إلاّ أنّنا نستنتج من المقدّمة أنّ الطبعة هي الثانية وأنّها تمّت بعد حزيران ١٩٩١، بهمّة فصل فنلندا في لبنان السيّد توفيق نجيب فاضل، وفي بيروت على ما يبدو. وكانت الطبعة الأولى قد صدرت سنة ١٩٧١ عن منشورات «أوراق لبنانيّة».

هذا الكتاب القيّم هو في الأصل مذكّرات الرحّالة قالين لزيارتين قام بهما إلى الجزيرة

العربيّة، وقد نُشرت بالإنكليزيّة في مجلّة الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة، على دفعتين: سنة ١٨٥٢، وسنة ١٨٥٤ بعد عامين من وفاة الرحّالة.

تمّت الترجمة إلى العربيّة على يد الأديب سمير شبلي بأسلوب سلس أنيق، ووضع المقدّمة والحواشي والاستدراكات والفهارس البحّاثة المؤرّخ يوسف إبراهيم يزبك.

أمّا قالين فقد كان من أوائل الغربيّين الذي تجوّلوا في الجزيرة العربيّة، إن لم يكن أوّلهم. تعلّم العربيّة ودرس حضارة شعوبها في جامعة هلسنكي وكانت أطروحته الأولى بعنوان مقارنات في العربيّة بين الفصحى والعاميّة. وكان من الرحّالة القلائل الذين زاروا بلاد العرب دون أن يبيّتوا النوايا الاستعماريّة. لا بل إنّه أحبّ العرب حبًّا بالغًا فتجلّى احترامه وتقديره لهم في ما كتبه، مثنيًا على كرمهم وسجاياهم، مُبديًا إعجابه بقبائلهم، مقارنًا بين بداوة العرب ومدنيّة الغرب بقلب كبير وفكر منفتح. ومن بليغ ما قاله في هذا الصدد: «لم أرَ في العالم كلّه أولادًا أكثر تعقّلاً وأحسن خُلقًا وأكثر طاعة لأبيهم من أبناء البدوي» (ص ١٠٧). وكتابه يزخر بالمعلومات عن سائر ما يمتّ إلى الجزيرة من أحوال اجتماعيّة وزراعيّة وتجاريّة، فضلاً عن أمور التاريخ والسياسة والفولكلور والعادات والأدب واللهجات.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قالين اعتنق الإسلام وتسمّى عبد الوليّ، ومات في ريعان العمر ولمّا يتجاوز الحادية والأربعين.

أ. كميل حشيمه

داروين وأزمة ١٨٨٢ بالدائرة الطبّيّة، وأوّل ثورة طلاّبيّة في العالم العربيّ بالكلّيّة السوريّة الإنجيليّة (الآن الجامعة الأميركيّة في بيروت)

بيروت، ١٩٩١، تأليف شفيق جحا، ٢٥٤ صفحة

بحث تاريخيّ شفّاف المبنى وغنيّ بالمعلومات، قليلها المتداول تقليدًا، وكثيرها الجديد المقتبس من دفائن المحفوظات ومن المصادر المطبوعة، لا سيّما الإنكليزيّة منها.

خير تلخيص للكتاب فهرسه المفصّل الواضح الذي صدّر به الأستاذ جحا مؤلّفه. وقد نسّق ما وصلت إليه أبحاثه من معلومات في ثلاثة أبواب ذيّلها برابع يحتوي على تسعة ملاحق، منها الثامن في «مؤلّفات أساتذة الكلّيّة السوريّة الإنجيليّة باللغة العربيّة» (صفحة ٢٢٩ ـ ٢٣١)، وعشر صفحات من المصادر والمراجع، وفهرس عام أبجديّ في ١٢ صفحة.

تورد الأبواب الثلاثة كما جاءت في الفهرس: ١ ـ المدخل (الكلّيّة السوريّة الإنجيليّة، الأزمة المنسيّة، الاهتمام المستجدّ بدراسة الأزمة)؛ ٢ ـ الأزمة (أسبابها، «مسألة لويس»، ثورة الطلاّب: أوّل ثورة طلاّبيّة في العالم العربيّ)؛ ٣ ـ الذيول والنتائج (مصير الطلاّب، مصير الدائرة الطبّيّة، اعتماد سياسة محافظة متشدّدة بالكلّيّة، استبدال العربيّة بالإنكليزيّة لغةً للتدريس، صرف يعقوب صرّوف وفارس نمر من الكلّيّة، شبلي شميّل ينشر المذهب الداروينيّ باللغة العربيّة).

ينطلق المؤلف من هذا الإطار الواضح، مستفيضًا في سرد ماجريات الأمور، استنادًا إلى الوثائق والمصادر التي دخلت في صميم العقد الدقيق، فحاول أن يعي كلّ من اشترك في نسج هذا الواقع المضطرب حقّه، ما له وما عليه. فبرزت «مسألة لويس» مع تشعّباتها أي ثورة الطلاّب في الدائرة الطيّبة وانتشار المذهب الداروينيّ. و«المسألة» أساسًا صراع فكريّ داخليّ بين قسوس الإرساليّة الإنجيليّة: فئة المحافظين المتشدّدين ومنهم دانيال بليس وجورج بوست، وقلّة المتحرّرين المتطوّرين وفي طليعتهم كورنيليوس فان ديك وإدوين لويس.

تفجّرت الأزمة في ١١ تمّوز ١٨٨٢ إبّان حفلة توزيع الشهادات وذهب ضحيّتها الأستاذ الشابّ إدوين لويس الذي تجاسر في خطبة ألقاها وغرّد خارج السرب، وإن بنغمات غير جليّة، ملمّحًا بانحياب إلى مواقف داروين. فأضحى بحكم الواقع البطل التعيس للمأساة التي أدّت إلى قرارَين: قرار صرفه من المدرسة ومن الإرساليّة، وقرار ثانٍ صدر بعد مهلة غير قصيرة في تمّوز ١٨٨٤، ويقضي بصرف «المدرّسَيْن الوطنيّين يعقوب صرّوف وفارس نمر».

وممّا يزيد كتاب الأستاذ جحا أهمّيّة كون أزمة لويس مرحلة هامّة في تاريخ الفكر وحرّيّة التعبير في لبنان، مع ما نتج عن ذلك مباشرة من احتجاجات طلاّب الدائرة الطيّبة على ما أصاب أستاذهم وثورتهم، وهي على ما يظهر أوّل إضراب طلاّبيّ في العالم العربيّ. وقد جاء تفصيل ذلك وتنقده في الصفحات ٧٧ إلى ١٦٥.

وسهّلت الأزمة كذلك، بطريقة غير مباشرة، في رواج وانتشار المذهب الداروينيّ على يد شبلي شميّل المقيم آنذاك في مصر (صفحة ١٨٩ إلى ٢٠٣).

أمّا الثورة الطلاّبيّة فنتج عنها على المدى القصير أزمة داخليّة في المدرسة، واستقالة بعض الأساتذة، وفصل عدد من الطلاّب، وعلى المدى الأبعد تبديل العربيّة بالإنكليزيّة لغةً لتدريس الطبّ، بعد أن تعذّر إيجاد الأساتذة الأميركان المتضلّعين من العربيّة وتحضير الأساتذة الوطنيّين. وقد جاء هذا القرار بمثابة تحويل ثقافيّ هامّ في العالم العربيّ.

كان اليسوعيّون، في تلك الحقبة من التاريخ، يقفون بالمرصاد لكلّ ما يحدث في الإرساليّة الإنجيليّة. فما إن وصلت أخبار مسألة لويس وإضراب الطلاّب إلى مسامع الآباء حتّى راح الأب لويس أبوجي يستقصي الحقائق، ورفعها بعد ذلك برسالة إلى الأب ريمي نورمان، بتاريخ ١٩ كانون الثاني ١٨٨٣، عارضًا ما حدث ومعربًا عن رأيه. وكان الأب أبوجي من أصحاب البصيرة المدقّقة والقلم اللاذع، ومن جملة الذين يغذّون بمنشوراتهم المكتبة الجداليّة ضدّ الإنجيليّين.

وقد عثرنا على تلك الرسالة في نشرة دوريّة محصورة التداول كان يصدرها يسوعيّو إقليم ليون بفرنسا[1]. نورد في ما يلي شيئًا ممّا جاء فيها، مترجمين بعض مقاطعها، على أمل أن نتحف الأستاذ جحا وقرّاءه بوثيقة جديدة يضيفها إلى المصادر المستفيضة التي استند إليها في دراسته الممتعة.

قال الأب أبوجي: «نشبت الحرب في معسكر السادة الأميركان البروتستانت في رأس

(1) *Lettres de Mold*, II (1883-1884), pp. 39-42.

بيروت. وقد يكون نتيجة خلافاتهم الأكثر جلاءً سقوط مدرسة لفت . .

«قبل أن ينفجر الخلاف بين طلاّب مدرسة الطبّ وبعض أساتذتها، كان عدم الوفاق قد تسرّب بين مديري المؤسّسة. ذلك أنّ أحد الأساتذة الشبّان، الدكتور لويس، كان يسعى منذ ما يقارب الثماني سنوات، لكسب الشعبيّة في محيط طلاّب الطبّ، وغايته على ما يظهر أن يستند مستقبلاً إلى ودّهم للنيل من نفوذ الدكتور بلس، مدير عامّ المدرسة، والدكتور بُوست مساعده الأهمّ.

«وكان محازبو السيّد لويس، الدكتور فان ديك وأصدقاءه، وهو، أي فان ديك، يُعتبر مرجعًا ذا شأن، الأمر الذي جعل العراك صعبًا بالنسبة إلى الدكتورَين بلس وبوست، رغم اتّكالهما على مَن يساندهما في مجلس الأمناء الذي يضمّ ١٢ عضوًا.

«إنفجرت القنبلة لمناسبة خطاب للدكتور لويس، أشاد فيه بفلسفة داروِن المادّيّة. فرفع القضيّة إلى نيويورك الدكتور بلس، وهو قسّيس بروتستنتيّ يرفض بقوّة فكرة تحدّره من قرد متطوّر. . .».

ثمّ يذكر أبوجي بالتفصيل الثورة الطلاّبيّة، وإقفال الفرع الطبّيّ لمدّة شهر، واستقالة الطبيب الإنكليزيّ بْرِسْتُك والدكتور فان ديك وابنه البكر. ويسجّل عودة أحد عشر طالبًا من أصل اثنين وأربعين، وكذلك تدنّي مستوى التعليم من جرّاء الاستقالات المذكورة. ويذهب إلى أبعد من ذلك، معتبرًا أنّ الجمعيّة الإرساليّة الأميركيّة التي أسّست المدرسة «تفكّر في إهمال هذه المؤسّسة، يوم حصل الطلاّب العائدون على شهاداتهم». ومن أسباب هذا الموقف الصعوبات التي تلقاها الإدارة للحصول من الباب العالي على الاعتراف الرسميّ بشهادات الطبّ التي تمنحها.

ولمّا كان هاجس كلا الفريقَين، الإنجيليّ واليسوعيّ، تداعي ما بنيه الآخر، يُردف الأب أبوجي مستنتجًا، وقد يتضمّن استنتاجه تمنّيًا: «ويزيدنا قناعةً في تداعي هذه المدرسة أنّها ترمي، في نيّة الجمعيّة المؤسّسة، إلى تحضير دُفَع من الوعّاظ البروتستانت، أكثر منها إلى تخريج الأطبّاء، وذلك بغية محاربة الكثلكة. . . والواقع على عكس ذلك، فهؤلاء الأطبّاء يتحوّلون عمليًّا إلى رفضة للدين وإلى عقلانيّين من الصنف الممتاز. . . وليس بينهم أحدٌ يصبو إلى الحصول على صفة واعظ «للإنجيل الروحانيّ». وقد شكا هذا الأمر بمرارة إلى زملائه مديرُ المؤسّسة نفسُه، في أحد الاجتماعات، فلم يتورّع الدكتور فان ديك من الإجابة أن ما كان في البداية أمرًا ممكنًا أصبح اليوم مستحيلاً، لأنّ حبّ العلم الطبّيّ وحده يجلب الطلاّب إلى مدرستهم».

هذا بعض ما جاء في «داروِن وأزمة ١٨٨٢ . . .». آمينا أن يشجّع تعريفنا هواة التاريخ المعيوش إلى قراءة هذا المصنّف، المتشعّب المواضيع في ميادين تطوّر الفكر والتعليم والمؤسّسات والمجتمع. ففي جديد معلوماته ووفرتها، ودقّة نقدها وصفاء سردها، فائدة ومتعة.

الأب سامي خوري اليسوعيّ

البطريرك إسطفان الدويهي، حياته ومؤلّفاته

تأليف الخوري ناصر الجميّل
بيروت، ١٩٩١، ٣١٢ صفحة

إنّه لمستحقّ ومستوجبٌ... أن يخصّص باحثٌ مؤرِّخ مدقِّق موسوعيّ من طراز الخوري الدكتور ناصر الجميّل هذا المجلّد المرجع عن حياة البطريرك إسطفان الدويهي ومؤلّفاته في جميع الميادين. إنّه العمل الذي هو، على حدّ قول صاحب مقدّمة الكتاب الأب إغناطيوس سعادة، «عمليّة مَسْح واسعة لمؤلّفات الدويهي التي تناقلتها أيدي النّاخ وانتشرت على المكتبات العامّة والخاصّة في الشرق والغرب، انطلاقًا ممّا وضعه العالم الألمانيّ جورج غراف في المجلّد الثالث من كتابه «تاريخ الآداب العربيّة المسيحيّة». ولكنّ الصفحات الثلاث عشرة تصبح، على يد هذا المؤرِّخ الشابّ، مائة وخمسين صفحة، والمخطوطة التي عثر عليها غراف في نسختين أو ثلاث تصبح عشرات النسخ، فضلاً عن الجديد الذي لم يعرف به المستشرق الألمانيّ» (ص ٨ ـ ٩). وبمجموعة المؤلّفات، التي يعرض لها ولمخطوطاتها المؤرِّخ الجميّل، وزّعها إلى ثلاثة أقسام: المؤلّفات التاريخيّة ـ الدفاعيّة (وفيها كتاب تاريخ الأزمنة)، والمؤلّفات الليتورجية، ومؤلّفات متنوّعة فيها الفلسفيّ واللاهوتيّ واللغويّ...

اللافت للنظر في كتاب الجميّل أمور عديدة أورد منها ثلاثة:

١ ـ يتجاوز المؤرِّخ الثبت الخاصّ بمؤلّفات البطريرك الدويهي فيتطرّق إلى مخطوطات أخرى سابقة للدويهي أو لاحقة. هذا ما قام به عندما عرض لموضوع «كتاب الشرطونيّة» فأحصى مخطوطات الشرطونيّة ما قبل الدويهي وما بعده، تلك المعتمدة على الشرطونيّة المعروفة بشرطونيّة إسطفان الدويهي الثالثة (ص ٨٥ ـ ١١٤). هذا ما اعتمده المؤلّف أيضًا عندما تطرّق إلى «كتاب النوافير الربانيّة» (ص ١٢٠ ـ ١٣٢).

٢ ـ نشر المؤرِّخ نصوص مراسلات إسطفان الدويهي فجمعها من مراجع مختلفة، منها الجديد ومنها ما نُشر سابقًا. وهذه المراسلات هي مرجع تاريخيّ هامّ يسلّط الضوء على الكثير من الجوانب الإيمانيّة (ما قام به الدويهي في مجال دحضه لآراء اليعقوبيّة) والاجتماعيّة والسياسيّة والراعويّة.

٣ ـ سيرة الدويهي المختصرة بقلم الخوري الجميّل (ص ١١ ـ ٤٢) تعتمد على المراسلات: «إنّها سيرة حياة الدويهي عن نفسه بنفسه» (ص ١٢)، فكشف الستار عن بعض الجوانب الخفيّة من حياة هذا البطريرك الذي طبع المارونيّة بعلمه الواسع وقداسته المتينة. فما استقاه الجميّل من المراسلات يعرّف على شخصيّة الدويهي عند دراسته في المعهد الماروني بروما، ونعرف بعض التفاصيل إذ «غمبت عيناه من كثرة الدرس والمطالعة، وبأعجوبة من السيّدة العذراء عاد إليه بصره، فتابع دروسه» (ص ١٦). ومن الدويهي في حلب إلى جعيتا، إلى زيارته، بطلب من البطريرك، موارنة بلاد الشوف والبقاع...، إلى الخدمة الرعويّة في بلدة أردة وعودة إلى حلب واعظًا معلّمًا، إلى الدويهي الأسقف والبطريرك، تتكوّن تلك الشخصيّة الكهنوتيّة الراشدة في علوم الدنيا والدين في خضم العديد من القضايا الشائكة والجدالات والمصاعب.

إلى جانب ذلك، لا بدَّ من لفت النظر إلى بعض التفاصيل

- ص ١٥٣، السطر الأخير: «تسنّى له أن يعادل أحد الوزراء الإنكليز». والأرجح هنا أنّ الكلمة المرادفة لـ ministre تعني في آنٍ واحد الوزير والخادم الذي ليس الكاثوليك، والمقصود هنا القسّيس الإنجيليّ، وكان الإنكليز يختمون برسالات الإنجيليّين قبل ظهور الرسالات الأميركيّة.
- ص ٢٣٧، وثيقة ٣١. هي رسالة إلى المسؤولين اليسوعيّين في روما يتّهم فيها البطريرك الدويهي يسوعيّي دمشق بالاحتفال بعيد الفصح مع «المشقّين»، وقد أحدثوا شكوكًا عظيمة. إلاّ أنّ الأصل الإيطاليّ المثبت على الصفحة التالية يشير إلى أنّ البطريرك الدويهي أحرى تحقيقًا مدققًا مع كاهن الموارنة في دمشق، وعطفًا على ذلك قد اتّضح له العكس، ممّا جعله يُصدر وثيقة تكذيبيّة في الموضوع. فاقتضى التصويب. ومن المستحسن العودة إلى الوثيقة المدرجة على الصفحة ٢٢٢ والموجّهة إلى الرئيس العامّ أوليفا، حيث يعبّر عن عميق عواطف الصداقة والامتنان نحو الرهبنة اليسوعيّة.
- ص ٢٥١، سطر ٢. يقول المؤلّف إنّ رسالة وُجّهت إلى المونسنيور إدواردو سيبو أمين سرّ مجمع انتشار الإيمان وبطريرك القسطنطينيّة (كذا). وقد تكون هذه الصيغة وقعت سهوًا كغلطٍ مطبعيّ.
- ص ٢٣٤. يذكر الكاردينال De Buillion. أليس الأصحّ De Bouillon؟

- يقول الدويهي في إحدى مراسلاته إنّ الشرق «لا يستحقّ أن يسمّى شرقًا بل خليطًا من المذاهب» (ص ٢٥). فمَن يصل إلى هذا النوع من الأحكام الجامعة، المبنيّة على نظرة مميّزة قادرة، والمستندة إلى ذهن بارع موضوعيّ، هو ذو شأن في الفكر والثقافة. كتاب الجميّل مرشد إلى سيرة البطريرك الدويهي ومؤلّفاته، إلاّ أنّه لا يغوص كثيرًا في فكر الدويهي وإبداعه. فلذلك، هذا الكتاب الذي لا بدَّ منه، حسنة ونكملة.

س. د.

منصور بن سَرجون المعروف بالقدّيس يوحنّا الدمشقيّ

تأليف الإكليريكي جوزف نصراله

نقله بتصرّف إلى العربيّة الأرشمندريت أنطون هيّي

سلسلة «الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم»، ٦. المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩١، ٢٧٨ صفحة

يوحنّا الدمشقيّ مفخرة من مفاخر الكنيسة، شرقًا وغربًا. فهو اللاهوتيّ والمجادل والخطيب والشاعر، وهو البطل المناضل عن الإيمان الأرثوذكسيّ. ولد في دمشق نحو ٦٥٥ وتُوفّي نحو ٧٥٠. كان جدّه منصور هو الذي سلّم المدينة إلى خالد بن الوليد في ١٠ أيلول ٦٣٥. وكان أبوه سَرْجُون من كبار موظّفي البلاط الأمويّ، فعهد إلى راهب صقليّ اسمه قزما بتهذيب ابنه، مع فتى تبنّاه اسمه قزما أيضًا.

أمّا يوحنّا (أو منصور)، فكان صديقًا ليزيد بن مُعاوية وللشاعر المسيحيّ الأخطل حتم يوحنّا مكان أبيه، حتّى حرّم عمر الثاني توظيف المسيحيّين في الدواوين ما لم يعتنقوا الإسلام. فترهّب يوحنّا في دير مار سابا قُربَ القدس، مع أخيه قزما (الذي أصبح في ما بعد أسقفًا على مايوما)، بين سنة ٧١٨ و٧٢٠. وفي الدير وضع يوحنّا عدّة مؤلّفات، أشهرها «ينبوع المعرفة»، وهو أوّل موسوعة لاهوتيّة على الطريقة المدرسيّة (scolastique).

هذا ما يقصّه علينا، بفيضٍ من المراجع العلميّة العربيّة والغربيّة، الإكسرخس العلاّمة يوسف نصرالله، الذي نعتبره حقًّا أكبر مؤرّخ للفكر الأنطاكيّ الملكيّ. وإن كان هذا الكتاب قد وُضع بالفرنسيّة سنة ١٩٥٠، إلاّ أنّه يُعتبر حتّى اليوم أكمل ما كُتب عن حياة قدّيسنا وأدقّه. فكانت مبادرة الأرشمندريت أسطن همّي مبادرةً مباركة، أغنت مكتبتنا العربيّة الدينيّة بكنزٍ ثمين.

لقد قام الأب همّي بنقل الكتاب «بتصرُّف»، كما جاء في العنوان. فأضاف أحيانًا معلوماتٍ جديدة (مثلاً فيما يخصّ بيت القدّيس، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١)، وأضاف عشرات العناوين جعلت الكتاب أكثر وضوحًا، وأضاف فصلاً كاملاً عن «يوحنّا المتعبُّد للعذراء القدّيسة» (ص ٢٣٣ ـ ٢٥٥) كان قد نشره في «المسرّة» سنة ١٩٨١، وقصيدةً للأستاذ مشال بلدي (ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩). ومن ناحيةٍ أخرى، خفّف المترجم كثيرًا من المراجع، وحذف بعض المعلومات العلميّة، لا سيّما تلك الخاصّة بالمخطوطات العربيّة، الأمر الذي يؤسَف له. كما أنّه حذف الباب الأخير الخاصّ بالترجمات العربيّة لمؤلّفات يوحنّا (ص ١٧٩ ـ ١٨٩ من الفرنسيّ)، ممّا أثار عجبنا. إلاّ أنّ الكتاب، زُعْمَ لك، قيّم جدًّا، لا يستغني عنه أيّ باحث. فنهنّئ المترجم والمكتبة البولسيّة اللذين أغنانا بكتابٍ كهذا عن أحد كبار آباء كنيستنا، ختم الفكر الآبائيّ وافتتح الفكر المسيحيّ الوسيط.

ولمّا كان الكتاب أشمل ممّا قدّمنا هنا، رأينا أن نُثبتَ ثبتًا بمحتوياته:

١ ـ المحيط التاريخيّ للقدّيس	ص ٢٥ ـ ٧٥
٢ ـ المحيط العائليّ	٧٧ ـ ٩٢
٣ ـ في خدمة الخلافة	٩٣ ـ ١١١
٤ ـ الترهُّب في دير مار سابا	١١٣ ـ ١٣٢
٥ ـ الصراع مع عظمي الأيقونات	١٣٣ ـ ١٥١
٦ ـ سنوات القدّيس الأخيرة وموته	١٥٣ ـ ١٦٧
٧ ـ إنتاجه الأدبيّ	١٦٩ ـ ٢٠٩
٨ ـ تأثيره في اللاهوت والفلسفة والشعر	٢١١ ـ ٢٢٣
٩ ـ تعبُّده للعذراء	٢٢٣ ـ ٢٥٥

الأب سمير خليل سمير اليسوعيّ

تاريخ الكنيسة الشرقيّة
وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة

تأليف المطران ميشيل يتيم والأرشمندريت إغناطيوس ديك
طبعة ثالثة منقّحة، منشورات المكتبة البولسيّة، بيروت - جونيه، ١٩٩١، ٤٠٦ صفحات

بات المثقّفون في الشرق على أشدّ ما تكون الحاجة إلى كتاب يعالج تاريخ الكنيسة معالجةً شاملة وإن مختصرة. فلا وجود في الخزانة العربيّة لكتب كالتي ألّفها الغربيّون أمثال دُوشين Duchesne وفليش ومرتان Fliche et Martin ودانيال روبس Daniel-Rops وسواهم كثيرون، وجلّ ما يتوفّر من هذا القبيل مؤلّف صغير نُقل إلى العربيّة منذ قرن ونيّف وضعه الكاهن الفرنسيّ لُومُون Lhomond. وما خلا ذلك يقتصرُ على تواريخ للطوائف والكنائس المحلّيّة، أو على دراسات لحقبات محدودة. من هنا أهمّيّة مصنّف المطران ميشيل يتيم والأرشمندريت إغناطيوس ديك.

ميزةٌ أخرى في الكتاب المذكور أنّه جامع على الرغم من صغر حجمه وتركيزه على الكنائس الشرقيّة. والدليل على جزيل نفعه أنّه طُبع مرّة أولى في حلب سنة ١٩٥٧ وسرعان ما نفدت نُسخه، وأُعيدت طباعته، بعد التنقيح، سنة ١٩٦٣ فما عتُمت أن نفدت الطبعة الثانية، وها هي الطبعة الثالثة تُزفّ إلى القرّاء محسّنةً إخراجًا ومضمونًا، مزيدًا عليها الكثير من المعلومات لا سيّما عن أحداث السنوات الأخيرة (المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الحركة المسكونيّة...).

ميزة ثالثة هي حسن التبويب والوضوح في العرض، يضاف إليها حسنات أخرى، منها الروح الموضوعيّة في معالجة الأحداث والرغبة الظاهرة في تثبيت التيّار المسكونيّ بين سائر الكنائس وجميع أبناء الإيمان المسيحيّ.

ك. ح.

موسوعة «عظماء المسيحيّة في التاريخ»

تأليف الأب جورج رحمه الأنطونيّ
منشورات المركز الرعويّ للأبحاث والدراسات، الرهبانيّة الأنطونيّة، ١٩٩٢

عمل موسوعيّ هو ثمرة جهد فرديّ يقوم به الأب جورج رحمه، أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانيّة، ويصدر عن منشورات المركز الرعويّ للأبحاث والدراسات التابع للرهبانيّة الأنطونيّة. صدر من الموسوعة كتيّب يعرض للمشروع ولأسماء «العظماء» الذين ستشمل الموسوعة أعمالهم وسيَرهم وأفكارهم. إنّهم أكثر من ستّماية عاشوا بين القرن الأوّل الميلاديّ والقرن العشرين. وصدر كذلك كتابان: الأوّل يحمل الرقم ١ ويتناول أوريجانوس الإسكندريّ، والثاني يحمل الرقم ٢ ويدرس بالتسلسل إغناطيوس الأنطاكيّ وكليمنضوس الرومانيّ وبوليكربوس الأزميريّ. إنّه عمل ضخم له الطابع الرعويّ المفيد، وهو في حال

اكتماله شيئًا فشيئًا بشكل المكتبة اللاهوتيّة الفكريّة المرجعيّة الضروريّة لكلّ مثقف أو مَن يريد التعمّق في إيمانه. كما أنها تكون أداة متينة باللغة العربيّة لمن يبغي الدخول إلى فكر الآباء وعظماء المسيحيّة في التاريخ».

س. د.

أفراهاط الحكيم الفارسيّ: سيرته، عصره، مؤلّفاته، فكره اللاهوتيّ

تأليف الدكتور بولس الفغالي
دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢، ١٨٩ صفحة

هو الكتاب الثاني للأب بولس الفغالي في سلسلة «التراث السريانيّ»، والكتاب الأوّل كان بعنوان: يعقوب السروجيّ كنّارة الروح وتيّارة البيعة، حياته ومؤلّفاته وفكره.

المعروف عن أفراهاط أنّه كان رفيع المنزلة بين الكتّاب الروحيّين السريان القدماء. وانتهت إلينا آثاره كاملة وهي تندرج في باب الروحانيّات. وما يلفت النظر فيها الطابع الكتابيّ الشديد، ممّا جعلها غذاءً مفضّلاً للنسّاك والمترهّبين في عصر صاحبها، ولسوف يجني منها أبناء اليوم جزيل الفائدة.

مع يوحنّا الصليب. مدخل إلى تعليمه الروحيّ

تأليف أنجلو ألباني وماسّيمو أستروا
ترجمة إسطفان طعمه الكرمليّ
سلسلة «تراث الكرمل»، ١٠، بيروت، ١٩٩١، ١٨٠ صفحة

نشر كلٌّ من الأبوين ألباني وأستروا سنة ١٩٧٨ كتيّبًا يتناول تعاليم يوحنّا الصليب الروحيّة[١]، وفيه رسوم تفسيريّة تساعد القارئ على تتبّع المسيرة الصوفيّة التي عاشها القدّيس واقترحها على المبتدئين في درب التأمّل: من المرحلة التطهيريّة، مرورًا بالليالي الفاعلة والمنفعلة، وصولاً إلى الاتّحاد. إنّ المحاولات التعميميّة كهذه ـ مثل تبسيط الفكرة المعقّدة إلى أقصى درجات التبسيط، أو الاعتقاد، كما هي الحال في هذا الكتيّب، بأنّ التفكير يتطوّر بطريقة متواصلة ونظاميّة، مع أنّنا في الواقع أمام مستويات عديدة لا بل أحيانًا أمام انقطاعات ـ تُصحّحُها منهجيّة جيّدة تنحى بالباحث عن الله منحىً واضحَ المعالم كان من الجائز أن يكون يوحنّا الصليب قد عرفه هو نفسه في آخر المطاف.

(١) Angelo Albani, Massimo Astrua: *La Dottrina spirituale di San Giovanni della Croce Dottore della Chiesa*, Milano.

في الذكرى المئويّة الرابعة لوفاة القدّيس، لا بدّ من أن نرحّب بتعريب هذا الكتيّب، وهو عمل أضاف إليه المترجم، الأب إسطفان طعمه، مقتطفات من كتابات القدّيس: قصيدةً، بعض الرسائل، ونماذج من مؤلّفاته، تُرجمت عن الأصل الأسبانيّ. يُزيّن الغلاف رسم للفنّان دالي: «مسيح يوحنّا الصليب». لا شكّ أنّ الكتابَ مدخل جيّد إلى فكر يوحنّا الصليب، وقد وعد الآباء الكرمليّون بتعريب شامل لكلّ مؤلّفات هذا القدّيس.

وبديهيّ أنّنا لا نتطلّب الكمال من الكُتيّب الذي بين أيدينا. فبعض التصرّف في الترجمة يبدو مقبولاً: وعلى سبيل المثال كنت أتمنّى لو تصرّف الناقل في تعريب جملة تنتقد الذين يجلسون متعتهم في غضبة الوقت أمام جهاز التلفزة وفي إرضاء الملذّات الجسديّة (ص ٥٤ ؛ في الأصل الإيطاليّ ص ٣٤). فبدلاً من ذلك، أسقط المترجم، ربّما سهوًا، بعض الكلمات الأساسيّة مثل: نشوة، وانخطاف، وتعليق النفس، وذلك في تعداد التجارب التي تؤدّي إلى اشتعال النفس (ص ١٠٤؛ الأصل ص ٨١). بالإضافة إلى ذلك، فإنّ تعريب كلمة *intelletto* (*entendiemento* بالإسبانيّة) بكلمة «عقل»، يثير مشكلة. فمن حيث المبدأ، تخصّص كلمة عقل بكلمة *(razon) ragione* التي يستعملها يوحنّا الصليب باستمرار ويميّزها عن *entendiemento* التي من المستحسن ترجمتها بكلمة ذهن. وممّا يضاعف من الخطأ أنّ المترجم لم ير سبيلاً إلى تعريب *ragione* إلاّ باللجوء أيضًا إلى كلمة عقل في جملة يجب، إلى ذلك، تصحيح غلط طباعيّ هامّ ورد فيها، وهو استعمال «للعقل» بدلاً من «في العقل».

ختامًا لا يسعنا إلاّ أن نتمنّى النجاح لكتاب سوف يؤدّي خدمات أكيدة، كما نتمنّى لقرّائه أن يفيدوا منه كدليل ليتسنّى لهم تناول كتابات الصوفيّ الإسبانيّ وهي نشوة للفكر، وانخطاف للقلب ومرشد أمين على درب الكرمل الوعرة.

جاد حاتم

تريزيا الأفيليّة: مقاربات في التصوّف،

أعمال المؤتمر التريزيانيّ الأوّل ٢٦ ـ ٢٧ كانون الثاني
بيروت، ١٩٩١

هذا الكتاب يجمع أعمال المؤتمر التريزيانيّ الأوّل الذي عُقد في دير الآباء الكرمليّين ـ الحازميّة، ودير كرمل الوحدة ـ حريصا (لبنان) وشارك فيه أساتذة في اللاهوت والفلسفة والآداب. تريزيا يسوع الأفيليّة، مُصلحة الكرمل وملفانة الكنيسة الجامعة، والمتصوّفة الفريدة، استقطبت هنا حول اسمها وأعمالها وسيرتها وفكرها الروحيّ مجموعة من الدراسات القيّمة (٤ بالعربيّة ـ ٨٦ صفحة ـ و١٢ بالفرنسيّة ـ ٢٢٨ صفحة) تناولت شتّى النواحي التاريخيّة والأخلاقيّة والأدبيّة والفلسفيّة. ولا شكّ أنّ هذه الدراسات استطاعت سبر أغوار مؤلّفات القدّيسة وما تركته حتّى اليوم من أثر في النفوس.

أملنا أن تستمرّ الدراسات الكرمليّة لتعزيز المكتبة الروحيّة العربيّة الشرقيّة.

Mélanges de l'Université Saint-Joseph,
Tome LI, 1990, Dar el-Machreq, Beyrouth (Liban), 344 pages

مزيج جامعة القدِّيس يوسف،
العدد ٥١، ١٩٩٠، دار المشرق، بيروت

ما زالت هذه المجموعة العريقة تصدر منذ عام ١٩٠٦، ويحتوي المجلَّد ٥١ على لائحة منتخبة من المقالات العلميَّة الرائدة في التاريخ والإسلاميَّات والتصوُّف والأدب العربيّ المسيحيّ، كما يبدو ذلك من فهرس المحتويات التالي:

- مايكل ديفي وحسّان سلامه سركيس: تيوبروسوبون ـ رأس الشقعة (فرنسيّ).
- جان موريس فياي: «نَبَط» كسكر ـ واسط في القرون الأولى من الإسلام (فرنسيّ).
- مارتين ماكدرموت: الشيخ المفيد يردّ على الحاجب: متكلّم شيعيّ يفسِّر القرآن والحديث.
- بولس نويا: أبو الحسن الحرّالي (ت ١٢٤١/٦٣٨). دراسة عنه ونصّان صوفيّان (فرنسيّ وعربيّ).
- حسّان سلامه سركيس: تميمة مارونيَّة عثر عليها ووزّعها المطران بولس مسعد (فرنسيّ).
- سمير خليل سمير: مقالة للشيخ أبي علي نظيف بن يمن حول اتِّفاق المسيحيِّين فيما بينهم (فرنسيّ).

المقال الأوَّل لمايكل ديفي وحسّان سركيس هو دراسة جغرافيَّة تاريخيَّة دقيقة لمنطقة رأس الشقعة في شمالي لبنان، وقد بيَّنا فيها أنّ الممر بين البترون والشقعة ـ المري لم يكن الخطّ الساحليّ بل الداخليّ، وذلك تفاديًا لوعورة المسلك المحاذي للبحر وصعوبته. في هذه الدراسة، يكشف الباحثان عن مكان مرفأ البترون قبل الهزَّة الأرضيَّة التي حدثت ٥٥١ م. وأخيرًا معجم مصغَّر لأسماء رأس الشقعة عبر التاريخ.

أمّا جان موريس فياي فهو يلقي الضوء على الأنباط أو النَّبَط أو النبيط، وهم مجموعة من الأقوام، ذات المنشأ غير الواضح، إلاّ ما يخصّ أنباط يثرب. والدراسة تتناول الأنباط في منطقة كسكر ـ واسط على مقربة من بغداد، حيث تدلّ المصادر أنّ الأثر الآراميّ كان بيِّنًا على لغتهم وعوائدهم في القرون الأولى للمسيحيَّة، إلاّ أنّهم، مع القرن الثامن الميلاديّ، تأثَّروا بالعربيَّة وما لبثوا أن اعتنقوا الإسلام.

أمّا مارتين ماكدرموت فهو ينشر نصًّا مخطوطًا للشيخ المفيد، المتكلّم الشيعيّ البغداديّ (ت ٤١٣ هـ/ ١٠٢٠ م)، المتأثِّر بالاعتزال. في النصّ مجموعة من المواضيع التي يعرض لها الشيخ المفيد، وهي من خصائص علم الكلام والتقليد الإماميّ.

والمجموعة الرابعة في هذا العدد الواحد والخمسين هي للأب بولس نويا اليسوعيّ الذي توفّاه الله وهو في عزّ العطاء في باريس حيث كان يعلّم في معهد الآداب العليا. والدراسة تنشر للمرَّة الأولى بعد وفاته وهي تتناول المصطلحات المجازيَّة للحرّالي (le langage figuratif). أمّا النصّان الصوفيّان فهما «كتاب مفتاح الباب المُقفل لفهم القرآن المُنزَّل»، و«كتاب العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المُنزَّل»، وهما للحرّالي نفسه وغير

منشورين. والحرّاك هو من الشعراء الشاميين عشر الميلاديّ، وُلد في بلدة حرّانة من أعمال الأندلس، وهو من الشعراء المتصوّفين. ومع أهمّيّة ما نشر له حتى يومنا هذا، فإنّه يبقى موضوعًا له مكانته في [illegible] هو موضوع الحكم والمثل. أو كيفيّة تفسير المقولة المنزلة تفسيرًا يقترب من الدين ولا ينفي العقل ولوازمه.

أمّا موضوع التميمة المارونيّة التي وقّعها «الحقير بولس بطرس البطريرك الأنطاكيّ» (ت سنة ١٨٩٠) فهو فريد من نوعه، حيث إنّ الباحث نشر النصّ الذي تتضمّنه التميمة وترجمة لها بالفرنسيّة. والنصّ هو في الأساس بالكرشونيّ وقد جزّأه الباحث إلى ستّة وعشرين مقطعًا. ويتّضح من قراءة نصّ التميمة أنّه إعادة، في جزء منه، لنصّ مدخل إنجيل يوحنّا، وهو ترجمة ركيكة لنصّ «الفشيطو» السريانيّ الذي يعود إلى القرن الخامس، كما أنّه يحتوي على كلمات أخرى أو تعابير من الكتاب المقدّس. واللافت النظر أنّ نصّ التميمة، التي تقي من الأعداء، هو مطبوع لا مخطوط ممّا يفيد أنّ هذا النوع من الطلاسم كان معروفًا ومرغوبًا فيه أواخر القرن التاسع عشر، إلاّ أنّه، منعًا لتحويله إلى خارقة أو عمل سحريّ، بقي في يد السلطات الكنسيّة.

إنّ هذا الجزء الواحد والخمسين من «مزيج» جامعة القدّيس يوسف هو، في تنوّع مواضيعه وخصوصًا في علميّته ورصانته، دعوة للعديد من الباحثين والمتخصّصين لمعالجة الكثير من مواضيع التراث والتاريخ والجيولوجيا والإسلاميّات وبالتالي لمتابعة تلك المكتبة العلميّة التي نحن بأشدّ الحاجة إليها.

س. د.

حوليّات فرع الآداب العربيّة

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ـ جامعة القدّيس يوسف، بيروت
المجلّد الرابع، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٩، ٥٧٣ صفحة

صدر هذا المجلّد مع بعض التأخير لأسباب تعود إلى أوضاع لبنان المعروفة، إلاّ أنّ محتوياته لم تفقد شيئًا من جدّتها وأهمّيّتها. وهي تتوزّع على محاور ثلاثة: نشرٌ لنصوص ووثائق مخطوطة، تعريف بنماذج من الأطاريح المناقشة في الفرع، جدول بخرّيجي الدراسات العليا من مطلع ١٩٨٦ إلى آخر ١٩٨٩.

أمّا المخطوطات، وقد نُشرت هنا للمرّة الأولى، فهي خمس: نصّ من كتاب الملخّص في إعراب القرآن لأبي زكريّا التبريزيّ، حقّقه الأستاذ أنيف ستّو رئيس فرع الآداب العربيّة في كلّيّة الآداب بجامعة القدّيس يوسف، ونصّ من كتاب سفرنامه حاجي بير وَلي، نقله إلى العربيّة السيّد طوني جرجس الحاج، ونصّ من كتاب جهرة الإسلام ذات النثر والنظام لمسلم بن محمود الشيزريّ، حقّقه السيّد علي يوسف نور الدين، وآخر من كتاب ابن الجوزيّ الرياض وروضة العشّاق، حقّقته السيّدة مؤمنة بشير العوف، وخامس من كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادي إلى صناعة الإنشا، حقّقه السيّد خليل فهد شحاده.

في القسم المخصّص للأطاريح تعريفاتٌ موسّعة بإحدى وستّين أطروحة دكتوراه نُوقشت في شتّى الاختصاصات، بين أدب وفلسفة وتاريخ وإسلاميّات وتربية. وهي إن دلّت على شيء فعلى النشاط الفريد الذي يقوم به قسم الدراسات العليا في الكليّة المذكورة ومدى تأثيره، ومعروف أنّ بضع مئات من طلاّب الدكتوراه مسجّلون فيه، أتوه من كافّة البلدان العربيّة. من هذه الأطاريح أثر الإعجاز القرآنيّ في تطوّر النقد الأدبيّ (من أوّل القرن ٥/١١ إلى نهاية القرن ٧/١٣)، بقلم الدكتور علي مهدي زيتون، وهي الآن قيد الطبع في دار المشرق، ومنها الاتّجاهات الفكريّة في الصحافة الحلبيّة (١٩٣٠ ـ ١٩٤٦) للدكتور سهيل أحمد الملاذيّ، وقد عرفناه في حلب باحثًا رصينًا طُلْعَة، ومنها وحدة الوجود عند ابن عربيّ وعبد الغنيّ النابلسيّ، للدكتور فيكتور سعيد باسيل، ومنها الفتاوى وعلاقتها بالتشريع المدنيّ في الأردنّ، بقلم الدكتور ضيف الله سليم طلفاح.

أمّا جدول الخرّيجين، فهو يحتوي على نحو ١٥٠ اسمًا، ومن محاسنه أنّه يبرز، إلى جانب اسم الطالب، عنوان أطروحته وتاريخ مناقشتها، فضلاً عن الدرجة التي حصل عليها، ممّا يفيد الباحثين مستقبلاً لتقويم تلك المراجع متى عادوا إليها.

أ. كميل حشيمه

جبران في الميزان

تأليف يوحنّا قمير

سلسلة «قادة الفكر»، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢، ٢٤٨ صفحة

قد يتعجّب البعض ويتساءل: هل من حاجة إلى كتاب جديد عن جبران؟ فالدراسات في هذا الموضوع تُعدّ بالمئات، منها بالعربيّة ومنها باللغات الأجنبيّة. إلاّ أنّ مصنّف الأب يوحنّا قمير جاء يفي بالمراد، فيجمع مستفيضًا غير مملّ، ويختصر موضّحًا غير مقلّ ولا مُخلّ. ولا عجب، فالكاتب صاحب الخبرة في مجال دراسة النوابغ، له في سلسلة «قادة الفكر» كُتب عن طاغور ونيتشه وغاندي، فضلاً عن سلسلته حول «فلاسفة العرب» حيث درس شخصيّة ونتاج عشرة منهم.

أمّا جبران في الميزان فقد تناول في قسمه الأوّل معالمَ سيرة صاحب النبيّ، وشخصيّته، ومناهله الفكريّة، وفي قسم ثانٍ تحليلاً للآثار، وفي ثالث وأخير استخلاصًا لأهمّ آراء جبران وأسلوبه الفنّيّ. ومن العنوان نستشفّ هدف الكتاب ومضمونه، فالمقصود وَضْع جبرانَ في القسطاس المستقيم، قدرَ المستطاع، تحاشيًا لغلوّ المطرئين أو تخديش الحاسدين المغرضين.

ومن حسنات الكتاب أنّه حلّل آثار جبران سفرًا سفرًا قبل الإفضاء إلى بتّ الأحكام، فجاءت هذه برمّتها متّزنة منصفة على ما ابتغاه المصنّف. ومن مميّزات الكتاب أيضًا وفرة الرسوم الجبرانيّة فيه، تتأمّل اللوحات يساعد على الغوص في الكلمات. هذا من جهة كلمات

جبران، أمّا من حيث كلام الأب قمير، فأسلوبه ذات مسـ ـ المثل بروعة انسجامه، وتناسب مقاطعه، وسحر جرسه وإيقاعه.

جبران في الميزان مختصر وافٍ مفيد، وموسوعة مبشّرة في كتاب أحد.

ك ح.

أفلاطون

سيرته، آثاره، ومذهبه الفلسفيّ

تأليف الأب جيمس فيتكان اليسوعيّ
سلسلة «قادة الفكر»، دار المشرق، ١٩٩١، ١٩٢ صفحة

إستهلّت دار المشرق سلسلة «قادة الفكر» سنة ١٩٥٨ بإصدار كتاب أرسطوطاليس **المعلّم الأوّل**، لكاتب هذه السطور. ومنذ ذلك الحين، صدر في تلك السلسلة عدّة حلقات، هي: توما الأكوينيّ، ابن رشد، طاغور، نيتشه، غاندي، ابن سينا. ويأتي الكتاب الذي بين يدينا كتكملة طبيعيّة لتلك السلسلة، وضعه العالِم والمحقّق الأب فيتكان، الذي وقف حياته على التدريس والتأليف في باب الفلسفة، القديمة والحديثة.

ترسم فصولُ الكتاب الأولى الإطارَ الفلسفيّ العامّ الذي نشأ فيه وتفاعل معه الفيلسوف الأثينيّ العظيم، تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو، والذي عُرف في المصادر القديمة بالإلهيّ، تكريمًا وتعظيمًا. أمّا في الفصول اللاحقة، فيسّط المؤلّف أهمّ مقوّمات الفلسفة الأفلاطونيّة، إن في باب المثالات (أو المُثُل)، أو النفس، أو الدين والدولة وسواها، بشكل واضح وسليم. ويلي ذلك مقتطفات من آثار أفلاطون، تدور على الحياة الفلسفيّة ووظيفة الفلسفة، وسبل المعرفة، والحواسّ والفكر وحجّة التذكّر ونظريّة المُثُل (وجميعها مقتبسة من محاورة فيدُون)، ثمّ في العلم والإحساس (من محاورة تيمايوس) وأسطورة الكهف والخير الأسمى وماهيّة العدالة (من محاورة الجمهوريّة) وأخيرًا كلام في الحبّ (من محاورة المائدة). وهذه المقتطفات في ترجماتها العربيّة تمثّل أفضل مدخل إلى مذهب هذا الفيلسوف الشهير وأسلوبه الجدليّ في تعقّب القضايا المستعصية. ولمّا كانت هذه النصوص لم تُترجَم عن الأصل اليونانيّ، فأمّلنا أن تبرز إلى حيّز الوجود، وفي المستقبل غير البعيد، ترجماتٌ عربيّة لمحاورات أفلاطون عن الأصل اليونانيّ. وليس لنا تحفّظات على المتن أو على المقتطفات، باستثناء تعريب بعض الأسماء أو العناوين اليونانيّة التي نلفت النظر إليها تكملة «للفائدة». فالفيلسوف الملطيّ الثالث وتلميذ أنكسيمندروس هو أنكسيمنيس (Anaximenes) لا أنكسيمنس، كما جاء على الصفحة ١٠، ولوتسيبوس هو لوقيبوس (ص ١٦)، ودنبس هو ديونيسيوس (ص ٣٣)، إلخ. كذلك عناوين المحاورات عرّبها المؤلّف نقلاً عن اليونانيّة حينًا وعن الفرنسيّة حينًا آخر، وأولى بنا في هذا الباب اعتماد الأصل اليونانيّ، كما فعل الفلاسفة والمؤرّخون العرب القدماء. فكراتيل (ص ٤٤) هي محاورة كراتيلوس، وطيمه (ص ٥٣) هي طيماوس الشهيرة، والشرائع (ص ٥٦) هي محاورة النواميس، جمع ناموس νομος، التي دخلت العربيّة على شكل

ناموس، وهكذا. أمّا النسبةُ إلى فيثاغورس فهي فيثاغوريّ لا فيثاغورسيّ، دون أدنى شكّ، كما هي الحال في سائر اللغات الحديثة. ذلك أنّ حرف السين هو علامة الإعراب في اللغة اليونانيّة وليس من صلب اسم العَلَم ذاك. وعلى كلّ حال لا نريد الانتقاص من قيمة هذا الكتاب، من حيث المحتوى والأسلوب العربيّ السليم.

د. ماجد فخري

تكلّم يا ربّ

رياضة روحيّة في الحياة اليوميّة
بحسب طريقة القدّيس إغناطيوس دي لويولا

تأليف الأخت أنطوانيت باسيل

سلسلة «الحياة الروحيّة»، ٨، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١، ١٤٣ صفحة

خير ما نقوله في هذا الكتاب القيّم، بعضُ ما سبقَ أن أشرنا إليه في مقدّمتنا له. فمن المعروف أنّ القدّيس إغناطيوس دي لويولا، مؤسّس الرهبانيّة اليسوعيّة، وضع كتيّبًا أسماه الرياضات الروحيّة بات مرجعًا فريدًا من نوعه استنار به الألوف من المؤمنين للصعود في معارج الروحيّات. «ومن ميزات هذا المؤلّف أنّ المنهج المرسوم فيه طيّع إلى أقصى الحدود، فيمكن تكييفه لمجاراة مقتضى الزمان والمكان بحيث يلائم المتمرّس والمبتدئ، المتفرّغ المتنسّك والمنهمك في كثرة الأشغال». وكتاب تكلّم يا ربّ هو «مساعد لأحد الأساليب التي يمكن اتّباعها بروحي من كتيّب إغناطيوس، ألا وهو ممارسة الرياضة الروحيّة في خضمّ الحياة اليوميّة».

«كتاب تكلّم يا ربّ طريف في نوعه، لطيف في مضمونه وحجمه، غزير المادّة كثيفها على اختصار، جزيل الفائدة لمن يركن إليه. وهو لا يقرأ كما تقرأ كتب المطالعة العاديّة، فإنّه مرشد للصلاة والتأمّل، لا مشبع للفضول مهما سما، يرده المريد بتمهّل وتأنٍ، ويأخذ منه كفاية اليوم».

والكتاب وضعته مؤلّفته أصلاً أحاديث تذاع ثمّ رأت أن تعمّم فائدته فنشرته طباعةً. وواضعته هي حضرة الرئيسة العامّة على راهبات القلبين الأقدسين ومن المتخصّصين في رياضات القدّيس إغناطيوس، تعمّقت فيها بعد طول دراسة وممارسة لنفسها ولعالج مَن رافقتهم في سُبُلها.

فالأمل وطيد أن تلقى هذه «الرياضة في الحياة اليوميّة» ما تستحقّه من رواج لمساعدة الباحثين عن الله حيثما كانوا وكيفما عملوا.

ك. ح.

تاريخ الحركة المسكونيّة

تأليف الأب روبير كليان اليسوعيّ
نقله إلى العربيّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ
«موسوعة المعرفة المسيحيّة»، تاريخ الكنيسة، العددان ٢ و٣
دار المشرق، بيروت، ١٩٩١، ٤٨ + ٥٢ صفحة

الأب روبير كليان يخدم في الشرق الأدنى منذ أربعين سنة ونيّف، يدرّس الآداب والفلسفة والعقيدة، وله كتابات عديدة حول الشؤون المسكونيّة. ومؤلّفه الصغير هذا يحتوي في جزءيه على زبدة الموضوع بأسلوب واضح وعرض موضوعيّ منفتح. فبعد نظرة سريعة إلى الانقسامات في الكنيسة، يدور البحث على بدايات الحركة المسكونيّة في مطلع القرن العشرين، ثمّ على تطوّر الحركة حتّى مجيء البابا يوحنّا الثالث والعشرين، فانطلاقة المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فما تبع هذا المجمع من لقاءات على مستوى القمّة وحوار بين لجان اللاهوتيّين والحركة المسكونيّة في القاعدة الشعبيّة وفي الشرق الأوسط على وجه التخصيص.

فلا يسعنا إلاّ أن نثني على الكتيّبين هذين لِما يتضمّنان من معلومات وما يتحلّيان به من روح وموضوعيّة. وإنّنا لنشاطر المؤلّف رأيه المتفائل تجاه مَن يشكّكون في المسيرة المسكونيّة، فالوحدة بين الكنائس تتقدّم رغم التعثّرات، ما دامت النيّات صالحة والهدف واحد.

ك. ح.

لماذا أخشى أن أحبّ؟

تأليف الأب جان پاول اليسوعيّ
نقله إلى العربيّة الخوري بولس الصبّاغ
دار المشرق، بيروت، ١٩٩١، ٩٦ صفحة

لدى كلّ منّا قدرة عظيمة وتوق عميق إلى أن نُحِبَّ ونُحَبّ. ولكن العديد من الناس لن يختبروا نشوة الحبّ في حياتهم لخشيتهم من لامبالاة الآخرين ورفضهم. وإنّنا جميعًا، ولو بنسب متفاوتة، نرزح تحت آلام الوحشة والخيبة ونشكو من حرمان عاطفيّ وروحيّ. وعوضًا من أن نكشف عن ذات تخشى أن تكون غير مقبولة أو قبيحة، نلجأ تلقائيًّا إلى بناء جدران من حولنا، علّها تقينا شرّ رفض الآخرين لنا. وفي كتابه «لماذا أخشى أن أحبّ؟»، يعلّمنا جان پاول كيف نهدم تلك الجدران ونقبل ذواتنا كما نحن. وعندما نتعلّم كيف نفهم ذواتنا ونتقبّلها، يصبح بإمكاننا أن نتغلّب على المخاوف التي تقضّ مضجعنا. وعندما نتغلّب على تلك المخاوف ونحطّم الجدران من حولنا، يصبح المجال أمامنا فسيحًا كي يتحقّق الحبّ فينا وتكتمل الحياة.

لماذا أخشى أن أقول لك مَن أنا؟

تأليف الأب جان بابل اليسوعي
نقله إلى العربيّة الخوري بولس الصيّاح
دار المشرق، بيروت، ١٩٩١، ١٤٣ صفحة

يحاول جان بابل، بكلّ ما أُعطي من نفاذ بصيرة، أن يلج في كتابه «لماذا أخشى أن أقول مَن أنا؟»، إلى عمق الوعي الذاتيّ ويفهم معنى الاتّصال الشخصيّ بالآخر. كلّ ذلك بغية مساعدة المرء كي يطوّر نظرته إلى ذاته وينمّي علاقاته بالآخرين. نحن نخاف أن يرفضنا الآخرون ونخشى كذلك أن يضنّ الآخرون بحبّهم لنا إذا ما انجلت لهم حقيقة واقعنا. لذا غالبًا ما نلجأ إلى «التمثيل» علّنا نوفّر عناء الصدق مع ذواتنا ومع الآخرين. لقد ميّز جان بابل مستويات خمسة في فهمه للاتّصال الشخصيّ، وهو يرى أنّ مستوى علاقتي أو عمقها إنّما يتحدّد من خلال نوعيّة المعلومات التي بها أبوح.

مَن أنت؟ أتراك «الشهيد»؟ أم «الجسد الجميل»؟ أم «المهرّج»، «المنافس»، «المتهكّم»؟ أم إنّك تتستّر في ثلّ أحد تلك الأدوار العديدة علّك تجد فيها حمايةً لنفسك؟ عندما نواجه عارفنا بصراحة وصدق، وعند ذلك فقط، نتعلّم كيف نقبل ذواتنا ونثق بأنّ الآخرين يقبلوننا كما نحن في حقيقتنا.

Sami Kuri, s.j.

Une Histoire du Liban à travers les Archives des Jésuites (1846-1862)
Dar el-Machreq, Beyrouth, 1992, 464 pages

هذا المصنّف هو الجزء الثاني من كتاب تاريخ لبنان من خلال محفوظات الرهبانيّة اليسوعيّة، وقد صدر جزؤه الأوّل سنة ١٩٨٥. وهو يحتوي على ١٨٠ وثيقة، وتنطلق نصوصه من ماجريات مراكز اليسوعيّين في بكفيّا، وبيروت، وزحلة، والمعلّقة، وغزير حيث الإكليريكيّة والمدرسة الداخليّة تشغلان السواد الأكبر من الرهبان. وقد واجه الرؤساء مشكلة، إذ إنّه بالرغم من تزايد عدد الآباء تعذّر عليهم أن يوسّعوا رقعة عملهم ويلبّوا النداءات الرسوليّة المتكاثرة لا سيّما في شأن تلقين الدروس الدينيّة وفتح المدارس في أهمّ القرى. ولمّا كانوا قد نظّموا الأخويّات المريميّة فإنّهم استعانوا بخبرة أعضائها من شبّان وشابّات لتأسيس ثلاث جمعيّات رهبانيّة إحداها لتوفير المعلّمين للمدارس الابتدائيّة اسموها «جمعيّة الكاتيكيّين» ولم تكتب لها الديمومة، ثمّ «جمعيّة بنات مريم» أو «المريمات» في بكفيّا، و«جمعيّة بنات قلب يسوع» في زحلة، وقد توحّدتا في ما بعد في جمعيّة واحدة لا تزال حيّة، «راهبات قلبَي يسوع ومريم الأقدسَين». وهكذا حقّق الآباء رغبتهم في الحصول على الخير الأعمّ وتأمين العمّلة النشيطين لرسالات المستقبل.

ثمّ فتح الآباء مركزين آخرين، محاولين التصدّي لمدّ الإرساليّات الإنجيليّة في صيدا ودير القمر. وانطلاقًا من أديرتهم انتشرت شبكة من المدارس والأعمال المؤمّنة في القرى المجاورة وصولاً إلى المتن وشرق صيدا ومنطقة صور وبلاد بشارة وسهل حوران وبلاد الإسماعيليّين.

وتشير المراسلات إلى خطورة بعض الظاهرات الاجتماعيّة، منها الخلافات بين المشايخ والفلاّحين، وإلى بروز أحداث سياسيّة راحت تُمهّد للخلافات الداخليّة التي ستتفجّر ابتداء من ١٨٥٩، وكأنّ بعض النوى، لا سيّما من الخارج، تدفع اللبنانيّين إلى التنافر فالتقاتل بين الجيران وحتّى بين أبناء البيت الواحد، في حين ظلّ الآباء يواصلون أعمالهم التربويّة والرسوليّة في جوّ قاتم يتلبّد يومًا بعد يوم.

مضمون الكتاب شهادات حيّة وعفويّة لواقع عاش فيه اليسوعيّون في تلك الحقبة من الزمن، معبّرين عن قضاياهم وأفراحهم وأتراحهم. شهادات تعكس الحياة الحقيقيّة في زمن غابر وتساعد على فهم الكثير ممّا نمرّ به اليوم. وقد جعل المؤلّف مطالعة هذه النصوص في متناول الجميع إذ أضاف إلى الوثائق تعليقات وشروحًا فضلاً عن معجم صغير للأشخاص والأحداث والأمكنة.

صدر حديثًا عن «دار المشرق»

في سلسلة قادة الفكر

يوحنّا قمير: غاندي رسول اللاعنف.

يوحنّا قمير: طاغور، مسرح وشعر.

ميخائيل ضومط: توما الأكويني.

يوحنّا قمير: نيتشه نبيّ المتفوّق.

جبرار جهامي: إبن سينا، حضوره الفكريّ بعد ألف عام.

ماجد فخري: إبن رشد فيلسوف قرطبة.

جيمس فينيكان: أفلاطون: سيرته، آثاره ومذهبه الفلسفيّ.

يوحنّا قمير: جبران في الميزان.